الفصـل الأول

الأمير عبدالقادر الجزائري:

حياته وثقافته

الأمير عبدالقادر الجزائري:
حياتـــه وثـقافتـه

١- أصلـه:

يعـود أصل الأمـير وأسـرته للأدارسـة الـذين كـانـوا ملـوكا في المغرب الأقـصى والأوسط والأندلس[١]، ويعتبر السيد عبدالقوي الأول، أول أجداد الأمير الذين نزحوا عن المغرب الأقصى، واستقر بقلعة بني حماد قرب سطيف من أعمال الجزائر، وذلك بعد أن اشتدت الفتن واضطربت الأحوال في مراكش.

وقد اشتهرت سلالة الأمير وعائلته بالعلم والتقوى والجهاد، فكانوا بذلك موضع تقدير واحترام من طرف الجميع، يُرجع اليهم في كل صغيرة وكبيرة، وبالتالي استطاعت أسرة الأمير أن تبسط نفوذها على القبائل النازلة في نواحي الغرب الجزائري المتاخمة للمغرب، وخاصة في عهد السيد محيي الدين والد الأمير عبدالقادر[٢] الذي اشتهر بالعلم والتقوى" وشدت اليه الرحال من الضواحي والأمصار لتلقي العلوم والأذكار، وقد جبل الله النفوس على محبته والقلوب على مودته"[٣]. وكان يلقب بالشريف لانتسابه إلى سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم[٤]، كما كان يمثل شيخ الطريقة القادرية بالجزائر[٥] التي انتسبت اليها أسرة الأمير في عهد جده السيد محمد المعروف بالمجاهد، ولذلك كانت قبيلة بنى هاشم تنظر اليه نظرة ولي من أولياء الله[٦].

وقد تزوج الشيخ محيي الدين والد الأمير، من أربع نسوة رزق منهن بستة أولاد، كان الأمير ثانيهم من زوجته الثالثة السيدة زهرة ابنة سيدي محمد بن دوحة الحسنية والتي توفيت عن عمر يناهز الثمانين سنة.

مما سبق يتبين لنا أن الأمير قد حاز كل أسباب الشرف والعزة، فنسبه الحسيني ينتهى إلى نبي الرحمة ﷺ، وأجداده علماء أفاضل، بلغوا أسمى مراتب المجد والعز بين أهلهم وفي أوطانهم، فلا غرو إذن أن ينهج الأمير مسلكهم ليزيد عزهم عزا وشرفهم شرفا، وبه اكتملت حلقات العقد، وباسمه اشتهرت أسرته ولا تزال.

هو الأمير عبدالقادر بن محيي الدين، بن مصطفى، بن محمد، بن مختار، بن عبدالقادر، بن أحمد المختار، بن عبدالقادر، بن أحمد المشهور بابن خده، بن محمد، ابن عبدالقوي، بن علي، بن أحمد، بن عبدالقوي، بن خالد، بن يوسف، ابن أحمد، بن بشار، بن محمد، بن مسعود، بن طاووس، بن يعقوب، ابن عبدالقوي، بن أحمد بن محمد بن ادريس الأصغر، بن إدريس الأكبر، بن عبدالله المحض، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، بن علي بن أبي طالب، وأم الحسن فاطمة الزهراء بنت سيد الوجود، محمد رسول الله ﷺ وشرف وكرم وعظم[٧]."

وتوجد بتحفة الزائر للأمير محمد قصيدة طويلة تحدث فيها ناظمها عن هذا النسب الشريف وهو السيد محمود الحمزاوي يقول في مطلعها:[٨]

ياحبذا الوعد والإنجاز يصحبه
حاشا علاكم بأن الخلف يعقبهُ
حيًّا، فأحيا ظنونا غير نائية
لولاه كانت قضتْ مما تراقبه

وقد كان عبدالقادر يكنى بأبي محمد، أما ألقابه فهي متعددة أطلقت عليه في المناسبات المختلفة منها: أمير المؤمنين -ناصر الدين[٩] -الأمير[١٠] -الجزائري[١١] -ابن الراشدي-ابن خلاد[١٢].

٢ - مولده ونشأته:

ولد أديبنا يوم الجمعة الموافق للثالث والعشرين من شهر رجب سنة اثنين وعشرين ومائتين والف للهجرة(١٢٢٢هـ)، الموافق لشهر مايو(أيار) سنة سبعة وثمانمائة والف

للميلاد(١٨٠٧م)[١٣] بقرية اختطها جده لأمه غربي مدينة معسكر، من إيالة وهران، وتسمى القيطنة بالقطر الجزائري.

نشأ الأمير وتربى في محيط ديني علمي ثقافي، وكان موضع اهتمام وعناية كبيرة من طرف والده الذي مال إليه ميلاً خاصاً، فأحاطه برأفته وحنانه المميزين لكأنه كان يتوسم فيه المجد، ويحس أنه سيكون لهذا الفتى شأنا عظيما، فحاول أن ينشئه نشأة تؤهله لتحمل مسؤولية قيادة الأسرة بعد وفاته، "فكان لا يسمح لأحد غيره أن يقوم بالعناية به، فقد كان هناك على ما يبدو سر غامض وعاطفة غير محددة، يدفعان الأب إلى أن يخصص اهتماما غير عادي للطفل الذي سيكون مستقبله محفوفا بهالة مجيدة ومرتبطا بمستقبل بلاده[١٤] .

التحق عبدالقادر بمدرسة والده بالقيطنة وهو في الرابعة من عمره، فكانت ملكاته العقلية على نبوغ غير عادي" فقد كان يقرأ ويكتب عندما كان في الخامسة من عمره"[١٥]، لما آنس الشيخ هذا الاستعداد الكبير وما تحلى به عبدالقادر من إمارات الذكاء والفطنة بذل والده خالص جهده في تثقيف ولده وإتاحة الفرص أمامه ليرتع من مناهل الثقافة والأدب.

وما أن بلغ عبدالقادر الثانية عشرة من عمره، حتى أصبح في عداد حفظة القرآن الكريم، متمكنا من الحديث وأصول الشريعة، وبعدها بسنتين أصبح في مقدور الشاب عبدالقادر أن يلقي دروسا في الجامع التابع لأسرته في مختلف المواد الفقهية[١٦].

وإدراكا من محيي الدين بأن العقل السليم في الجسم السليم، راح يشجع ابنه على الفروسية، وركوب الخيل، ومقارعة أنداده، والمشاركة في المسابقات التي تقام آنذاك، فأظهر تفوقا مدهشا" فقد كان يلمس كتف فرسه بصدره، ويضع أحد يديه على ظهر الفرس ثم يقفز إلى الجانب الآخر، أو أنه كان يدفع الفرس إلى أكبر سرعة ممكنة، ثم ينزع قدميه من المهماز، ويقف على السرج ويطلق النار على هدفه بدقة عجيبة[١٧] .

وبعد أن اكتملت للشاب المؤهلات الجسمية والعقلية في مسقط رأسه بالقيطنة، قرر أبوه إيفاده إلى وهران للأخذ عن علمائها وتوسيع معارفه، فانضم إلى طلاب مدرسة المدينة التي كانت بإشراف أحمد بن الخوجة، ومكث بها سنتين طالبا للعلم والمعارف، شغوفا بالدراسة والتحصيل، فازداد تعمقا في الفقه، وطالع كتب الفلاسفة وتعلم الحساب والجغرافيا، على يد الشيخ أحمد بن الطاهر البطيوي قاضي أرزيو الذي كان مشهورا في ذلك الوقت بغزارة العلم وسعة الإطلاع"[١٨]

وقد دامت رحلة عبدالقادر العلمية هذه ما يقرب السنتين(١٢٣٧-١٢٣٩هـ) (١٨٢١-١٨٢٣م) ليعود بعدها إلى بلدته القيطنة، التي لم يمكث بها طويلا، حتى بادر والده الشيخ محيي الدين-وقد رأى علامات الرجولة جسميا وعقليا قد اكتملت في ولده - إلى تزويجه وانتقى له فتاة جمعت محاسن الخلق والخلق والنسب الشريف وهي ابنة عم عبدالقادر [١٩]، التي كانت مثله تتمتع بجمال وأخلاق عالية، وقد تم حفل زفافه على الطريقة الإسلامية، وكان عمره آنذاك الخامسة عشر[٢٠].

وتزامنت شهرته العلمية مع فروسية خاصة، وكان عبدالقادر يعيش مرحلة الشباب الحقة بما فيها من قوة وشجاعة وتحمل، ولذلك فلا عجب أن نراه وهو صاحب السبعة عشر ربيعا، يشار إليه بالبنان لشدة البأس وقوة البدن والفروسية، وبذلك عود نفسه وروحه على تحمل الشدائد والصعاب، وكأن الأقدار تهيؤه لمستقبل يتطلب تربية خاصة، فلا غرابة أن يرى وهو أمير بعد ذلك يقوم" بتلك الأدوار المدهشة التي أثارت استغراب وحيرة أعدائه (عدم النوم خلال أسابيع والتعرض للصدام وندرة إغماد سيفه)، فقد كان صحيحا ما قيل عنه من أن سرجه كان عرشه"[٢١]

وعلى الرغم من الثراء الذي كانت تتمتع به أسرة عبدالقادر، إلا أن ذلك لم يدفعه إلى اللهو والترف، بل كان متواضعا ووسطا في كل الأمور، ومع هذا التواضع

كان «ذا جاذبية ساحرة مع بساطة وأناقة في لباسه، متواضعا، إلا أنه كان شغوفا بتزيين سلاحه فقد كانت بندقيته التونسية الطويلة مرصعة بالفضة، أما مسدسه فقد كان مرصعا بالجواهر". [٢٢]

وكانت هواية الأمير المحببة إلى نفسه كثيرا، رياضة الصيد، التي كان يمارسها برغبة وحب شديدين، بحيث كان كلما انتهى من واجباته العلمية والدينية يأخذ معه خادمين أو ثلاثة، ثم يقصد الغابات والبراري، عكس أنداده من الشباب الآخرين الذين كانوا يعطون رحلات الصيد مظهرا استعراضيا، حيث يتقدمون مع حاشية كبيرة من الخدم والصقور والكلاب.

وإثر عودته من رحلته كان يؤوب إلى دروسه وقد تجدد نشاطه، وأصبحت نفسه مستعدة أكثر من ذي قبل للتحصيل والإستيعاب، ذلك أن مثل هذه الأمور لم تكن تشغله عن القيام بواجباته الأساسية العلمية أو الدينية.

وفي هذا السن، بدأت ملكة الشعر تظهر لدى عبدالقادر للعيان، حيث بدأ يقرض الشعر ولما يبلغ العشرين من عمره بعد، على الرغم من أنه" لم يسبق له تعلم موازين الشعر ومقايسه، ولا سبق له أن تلقى أصوله ومبادئه على أستاذ خبير في فن الشعر وأصوله"[٢٣]، فجمع بذلك بين رتبتي السيف والقلم مما زاد أباه إعجابا وفخرا به، فكان لا يقدم على عمل دون استشارته ولا يحضر مناسبة اجتماعية أو سياسية إلا برفقته[٢٤].

تاقت نفس محيي الدين إلى البقاع المقدسة وزيارة المصطفى عليه الصلاة والسلام، فعزم على الحج إلا أن حاكم وهران آنذاك "حسن داي" الذي أوغر صدره بالدسائس والوشايات التي حكيت ضد محيي الدين ونجله، فرض عليهما الإقامة الجبرية في وهران وهما في طريقهما إلى الحجاز، " واستمر هذا دون وهن سنتين"[٢٥]، ولم يقم محيي الدين بأي احتجاج، وقد استفاد وعبد القادر من هذه العزلة المفروضة

وكرسا أوقاتهما لدراستهما المفضلة .[٢٦]

ومع انقضاء المدة، أذن لهما الداي التركي باستئناف رحلتهما، بعد تدخل "بعض الأشراف كمصطفى بن اسماعيل، وموسرالى"[٢٧] ليواصلا طريقهما عبر المدية إلى تونس وانضما لوفد من الحجاج .

وبعد خمسة عشر يوما وصلا إلى الإسكندرية، حيث توقفا بها بضعة أيام ثم سارا منها إلى القاهرة، حيث حظيا بمقابلة حاكمها محمد علي باشا[٢٨] "، ولم يخطر ببال عبدالقادر الفتى وهو يتأمل هذا الحاكم أنه سيتبع يوما خطاه، وينسج على منواله ويضاهيه في مهاراته العسكرية والإدارية .

وفي قاهرة المعز قابلا أعيان المدينة وكبراءها وجالسا علماءها من أمثال الشيخ علي بن محمد الميلي الجمالي والشيخ محمد المعروف بابن الأمير أحد اصحاب الحواشي المشهورة لشرح عبدالسلام على جوهرة التوحيد[٢٩] .

وغادرا مصر وهما يحملان في نفسيهما ذكريات طيبة عن بلد الكنانة، وإعجاباً شديداً بما وصلت إليه الحياة فيها من تقدم وازدهار على يد حاكمها، فاتضحت لهم الحقيقة المرة للحكام الاتراك في الجزائر الذين" أخضعوا كل الأمور للسلطة العسكرية وقضوا بذلك على العبقرية الإسلامية في هذا الوطن[٣٠] "

ووصل الركب إلى البلد الحرام مهبط الوحي ومهد الرسالة المحمدية الخالدة فأدى الشيخ وفتاه ما فرض عليهما وتشرفا بالوقوف أمام ضريح الرسول(ص) ليبيمما وجهيهما صوب البلاد الشامية " حيث أقاما بدمشق عدة شهور تمكن عبدالقادر أثناءها من حضور حلقات الدروس العلمية التي كان يدرس فيها كبار العلماء بالجامع الأموي" وبذلك أضاف عبدالقادر إلى قائمة شيوخه" علماء جدد أمثال الشيخ المحدث عبدالرحمان الكزيزي، فقد سمع عليه هو ووالده، بعض البخاري بمسجد بني أمية،

كما أضيف اسم الشيخ خالد النقشبندي البغدادي الشهرزوري الصوفي الأديب[٣١] .

ومن دمشق الفيحاء، اتجه محيي الدين وولده إلى دار السلام- بغداد- عاصمة بني العباس وحاضرة العالم الإسلامي أيام عزه، فزارا ضريح القطب الرباني سيدي عبدالقادر الجيلاني(قدس سره)[٣٢]، واجتمعا هناك بعلماء بغداد فتزودوا خير الزاد منهم ما استطاعا إلى ذلك سبيلا، وهناك لبس الشيخ محيى الدين (الخرقة) القادرية من يد الأستاذ نقيب الاشراف وخليفة سيدنا الشيخ(قدس سره) سليله السيد محمود وأجازه مشافهة وكتابة . [٣٣]

آن موعد العودة فقفل عبدالقادر ووالده آيبين إلى الوطن فحجا ثانية وزارا قاهرة المعز فشهدا فيها احتفال المسلمين بمولد الرسول الحبيب محمد - ولعل ذلك ما جعله يستن سنة الاحتفال بالمولد النبوي في امارته بعد، ويعطيه ما يستحقه من تقدير وإجلال[٣٤]، وغادرا مصر بعد انتهاء إقامتهما مودعين بما استقبلا به من حفاوة وإكرام حيث اتجه الموكب سالكا طريقه نحو برقة لزيارة ضريح الجد مصطفى في عين غزالة ناحية درنة، ومنها إلى طرابلس التي غادراها إلى تونس، فالجزائر العاصمة- حيث قابلا الوالي التركي هناك .

وفي يوم مشهود أطل ركب الحجيج على مشارف القيطنة أوائل عام ١٢٤٣هـ - ١٨٢٨م بعد غياب دام قرابة السنتين لتعم الأفراح هذه البلدة بعودة شيخها وفتاها فكان يوما مشهودا عمته البهجة والمسرة، وبدأ الناس يتوافدون مهنئين بسلامة العودة والدعوة للشيخ ونجله بطول العمر فأكرم محيي الدين ضيوفه وتقبل تهانيهم داعيا لهم بالخير والرشاد .

وكانت هذه الرحلة المباركة ذات أثر كبير في حياة عبدالقادر الذي أخذ مباشرة بعد عودته في الاعتزال عن الناس والانصراف إلى العبادة والدراسة، منشغلا بكتب

الفلاسفة- فقرأ أفلاطون وفيثاغورث وأرسطو ودرس كتابات مشاهير المؤلفين من عهود الخلافة العربية عن التاريخ القديم والحديث وعن الفلسفة واللغة والفلك، والجغرافيا، بل وحتى الطب، وتشرَّب التصوف من خلال كتب محيى الدين بن عربي وكتب ابن سينا وغيرهما.[٣٥]

وهكذا تحقق للشيخ في فتاه ماكان يتمناه ويطمح اليه، وخاصة بعد هذه الرحلة التي كانت أحد أهداف محيى الدين المقصودة، بعد أن حصل عبدالقادر على السياسة الأدبية بالوطن، وحاز الرياسة العلمية في كل سكن وقطن، فلم يبق إذن من تقاليد التعليم الشائعة في بيئته وعصره غير أن يرحل به إلى الضواحي الحقيقية والمجازية، ليمرن من كل بلد يمر به بمناقب أهله.[٣٦] .

وحسنا فعل محيي الدين، فقد آتت هذه المرحلة أكلها الطيب، فأتاحت للأمير الاطلاع على أحوال العالم الإسلامي في المشرق، ونظم الحكم والإدارة في مختلف الميادين، ورأى بأم عينيه ما وصل اليه المشرق، فرجع مملوء الوطاب موفور الزاد، كما عاش الأمير بعد هذه الرحلة بأحاسيسه وعواطفه" يؤلف علماء الشرق في بغداد ودمشق والقاهرة وخاصة أفذاذ الأزهر وثواره وأحرار الرأي منهم في عصره، يراسلهم ويستفتيهم وهو أمير - كما سنرى فيما بعد، ويحن اليهم وهو أسير، ويساقيهم الشعر وهو حر طليق" .

لم يظفر الأمير وأبوه بالأمان والاستقرار في بلدتهما طويلا، فلم يلبثا إلا قليلا حتى بدأت نذر الغزو الفرنسي تلوح في الآفاق تهدد البلاد والعباد بدعوى الاقتصاص من حادث المروحة المفتعلة ورد الاعتبار إلى الشرف الفرنسي العظيم المهان، فأقامت فرنسا الدنيا وأقعدتها، وأرادت أن تفرض شروطا قاسية على الداي حتى[٣٧] تتراجع عن حصارها لشواطئ البلاد، ولكن الداي حسين رفضها بشدة لما تضمنت من شروط مهينة تمس كرامة البلاد وحكومتها[٣٨] .

ونتيجة لهذا الرفض التركي بشروط فرنسا أفصحت هذه الأخيرة عن نواياها الخبيثة وحقدها الدفين، وبدأت فرض حصار شامل حول الموانئ الجزائرية، فلم تجد أي مقاومة أو رد فعل خاصة وأن الأسطول الجزائري كان غائبا عن البلاد للاشتراك مع الاسطول العثماني في معركة نافرين البحرية الشهيرة وبذلك أمست الجزائر في عزلة بحرية تامة . فحصل تقهقر اقتصادي فاجع في البلاد فاشتد البأس على الناس وضعفت خزينة الدولة ,لتجد بعدها فرنسا اللقمة سائغة والفرصة سانحة. فلتضرب ضربتها الكبرى وتحقق حلم آلاف السنين

وفى التاسع عشر من يونيو – جوان – من سنة ١٨٣٠ نزلت القوات الغازية ميناء سيدي فرج قادمة من ميناء طولون الحربي[٣٩] بقوة تعدادها٢٠٠٠٠ – ٨٧٠٠٠– مشاة – ٢٠٠٠– من الخيالة . وما كاد اليوم الخامس من يوليو يطل حتى كانت عاصمة البلاد تستسلم للعداة . ليغادرها الداي – لا مأسوفاً عليه – بعد أن ضمن حياته وأمواله الخاصة . واعتقدت فرنسا ان الاحتلال للبلاد قد تحقق . او انه قاب قوسين او ادنى ولكن خاب ظنها . فبمغادرة الداي الجزائراشتعل فتيل المعركة وتسارع الناس للجهاد . فبدات المقاومة الشعبية تأخذ مكانها بامكانات بسيطة تفتقر للتنظيم والاعداد ومع ذلك لقنت فرنسا دروسا خالدة في الشجاعة والفداء، فكان أحمد باي في الشرق الذي التف حوله المجاهدون ليقود مقاومة باسلة سجلها له التاريخ بأحرف من نار ونور وكان عبدالقادر في الغرب الذي دخل الأحداث من بابها الأوسع بتحمله مسؤولية الجهاد وأثقال الإمارة.

٣- مبايعته بالإمارة:

وبعد أن غادر الداي المخلوع البلاد بشروط مهينة، كان الخامس من يوليو اليوم الموعود والفيصل بين عهدين، فترك الشعب الأعزل وحده في أتون معركة غير متكافئة على الإطلاق، يواجه بصدور عارية أسلحة الفرنسيين ومدافعهم التي هزت قلاع المدن

وبناياتها ودكتها د كا ، يجاهد بكل ما أوتي من إمكانات ، فكانت المصادمات في كل شبر تطؤه أرجل المحتل ، وضرب الاهالي أروع الأمثلة في الدفاع والاستبسال عن وطنهم ، وحرماتهم وشرفهم ، وكلما ازداد الشعب إصرارا على الجهاد والقتال ، ازداد العدو بطشا وتنكيلا وتشريدا بما سخره من أسلحة وآلات الدمار ، فكانت النتيجة أن انهزمت القوات الوطنية لا عن جبن وخوف ، ولكن ما ذا يفعل المنجل والفأس ، أمام البندقية والمدفع ؟ .

وارتكب العدو أبشع الجرائم في حق الشعب الأعزل ، وشهد شاهد من أهلها حين يورد الكاتبان كوليت وفرانسيس جونسون هذا المثال بقولهما" كانت قبيلة أولاد الرياح قد تلقت من القائد الفرنسي أمرا بالتسليم ، ولكنها بدل أن تسلّم ، لاذت بالفرار إلى المغاور والكهوف لتستأنف منها الجهاد ، وتواصل المقاومة ، فلما ضيق القائد «بلسبيه» الخناق على أفراد هذه القبيلة وهم في بطن أحد الكهوف ، اشترطوا عليه سحب القوات الفرنسية ليخرجوا إليه ، ولكنه رفض هذه الشروط ، وقرر أن يصب عليهم نار جهنم ليصلوها سعيرا ، وأنى للقلم أن يوصف هذا المشهد الجبار العاتي ، فهذه هي القوات الفرنسية تتقدم تحت جنح من الليل البهيم ، تتخلله أضواء القمر الباهتة من خلف من سحب متكاثفة مدلهمة ويتجه الجنود الفرنسيون صوب فجوة الكهف يوصدونها بالمتاريس ويشعلون بداخلها ومن حولها النيران ، فتصم الآذان وتولول النساء ، ويصرخ الأطفال وينعق الحيوان ، وهذه هي الصخور تحترق وتنهار ، فتنتشر منها الأتربة فتخنق الجموع ، وتتناثر منها الجنادل فتصيب الرؤوس ، وهذه هي الذخائرتنفجر فيعم الدمار ، وينتشر الموت ويجاهد الرجال والحيوان للخلاص من بطن الأرض فتنطبق عليهم الأرض ويقبرهم الجماد ، ويقبل الصبح وتتولى فرقة الجنود الفرنسيين معاينة الأتون الذي صبوا فيه النيران أثناء الليل ، فيرتد منهم البصر من هول مايرون ، ففي مدخل الغار انتشرت هياكل ثيران وحمير وخراف حدت بها صوب مخرج الكهف لاستنشاق الهواء الذي عدم بالداخل

وتكدست بين هذه الحيوانات ومن تحتها، جثث رجال ونساء وأطفال، وشوهد رجل ميت وهو جاث على ركبتيه، وقد أمسكت يداه ثور نافق، وبجواره امرأته ميتة تحتضن بين ذراعيها طفلها الميت مما يدل على أن الرجل اختنق وهو يدافع عن امرأته وطفله الذين اختنقا أيضا من هجوم الثور عليهما في أثناء الحريق . وفي سراديب هذه المغاور الفسيحة، وجد الفرنسيون سبعمائة وستين جثة أخرجوا منها ستين أعرابيا يعانون سكرة الموت، مالبث أربعة منهم أن قضوا نحبهم، وعشرة منهم حملتهم الإسعاف والباقون أطلق سراحهم ليعودوا إلى مساكنهم عبرة لمن لايعتبر، ولم يبق من حطام الدنيا سوى الدمع القاني يذرفونه على الدمار الحميم."[٤٠]

هكذا وبهذه الوسائل والطرق الخسيسة بدأ الاستعمار في تثبيت أقدامه بالبلاد، واشرأبت أعناقه تستطلع الأمور لتوسيع أطماعه الاستيطانية خاصة وأن السبيل ممهد، فالمقاومة شبه منعدمة وإن وجدت فهي تفتقر للتنظيم والإعداد والاستمرار مما جعلها لا تثبت في الميدان إلا أياما، أو ساعات معدودات، يتفرق بعدها الجمع وهو يجر قتلاه الشهداء، فانعدم الأمن واضطربت الأحوال، وعمت البلوى جميع أنحاء البلاد بانهيار الحكم التركي فلم يعد الإنسان يأمن في هذا الوطن على نفسه وماله، فكثر النهب والسلب وتعددت الجرائم، واصبح الناس يعيشون عرضة لكل الشرور والبلايا، فأمست غارات النهب والسلب تعترض الآمنين فتكدرت الأمور وآل امر البلاد والعباد إلى مصير أسود قاتم " ومع فقدان الشخصية الرسمية التي تضبط مصير الأمة وتسوس مصالح الشعب، وجد كل زعيم الفرصة مواتية ليستقل بناحية[٤١] " فيصبح الخصم اللدود لجاره.

وأمام هذا الدرك الأسفل الذي انحدرت اليه أحوال البلاد، تسابق أولو الرأي من العلماء والفقهاء والمرابطين في محاولة لإيجاد مخرج لهذه الأزمة وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فأجمعوا رأيهم بينهم وقد اتفقوا على شيء واحد وهو اللجوء إلى محيي الدين لمعرفة رأيه، لما كان يتمتع به من احترام وتقدير، وراودوه على الإمارة فاعتذر اليهم

بكبر سنه[٤٢]"، ولكنه أشار عليهم أن يبعثوا بوفد إلى سلطان المغرب ليعرضوا عليه انضمام البلاد لسلطانه، فعملوا بمشورته، وبعثوا وفدا إلى المغرب لمقابلة السلطان، فأحسن هذا الأخير- مولاي عبدالرحمان- وفادتهم وتقبل عرضهم بكل امتنان، وعقد لابن عمته - علي بن سليمان- على الجزائر، واتخذت تلمسان عاصمة للمقاطعة الجديدة، وامتد نفوذها حتى مليانه شرقا، وخطب للسلطان عبدالرحمان في المساجد، وظن الجميع أن الأمر قد انتهى إلى هذه النهاية السعيدة، لكن فرنسا لم يرضها هذا الوضع المستجد لتضاربه مع مصالحها، فأوعزت إلى سفيرها بطنجة أن يقدم تهديدات مباشرة للسلطان، وإبراز العواقب الوخيمة التي ستنجم عن هذا التصرف، فبلغ الهلع مبلغه لدى عبدالرحمان فرضخ لتهديدات فرنسا، وسارع إلى سحب جنوده بعد ستة أشهر فقط من دخولها البلاد مما جعل الأمور تؤول إلى حالتها الأولى من الفوضى والاضطراب.

وهنا لم يجد كبار القوم ورؤساء القبائل بداً من العودة ثانية إلى الشيخ محيي الدين وطلبوا منه أن يتولى بنفسه، ولكنه اعتذر بلباقة، وأمام إصرارهم اقترح عليهم مبايعة ابنه عبدالقادر بالإمارة" فاستقبل الحاضرون هذا الحل الفجائي وغير المنتظر للمشكل بأصوات الموافقة العالية، فاسم عبدالقادر قد ردد بحماس، وكانت شخصية وملامح ورجولة وشجاعة ابن محيى الدين المفضل هو موضوع الحديث الرئيسي، ونتيجة لذلك أرسل اليه فارس لإحضاره من القيطنة."[٤٣]

وكان عبدالقادر في ذلك الحين يقود معركة ضد الجيش الفرنسي في مكان يدعى حصن" فيليب" ولما بلغه الخبر آب إلى معسكره وبعد أن اخبر بكل مادار أثناء غيبته قال في هدوء وانضباط وبدون زهو" إن من واجبي طاعة أوامر والدي[٤٤] "فأكبر الجميع منه هذه المقولة التي تعبر عن البنوة الطائعة والإخلاص الوطني.

وبعدها مباشرة بدأت مراسم البيعة الاولى التي تمت"بوادي فربوحه"[٤٥] من

غريس عند شجرة الدردارة وهي شجرة عظيمة كان القوم يجتمعون تحتها للشورى، وكان ذلك بتاريخ ١٣ رجب ١٢٤٨ هـ الموافق لـ ٢٨ نوفبر ١٨٣٢ م[٤٦] حيث بايعه القوم وفي مقدمتهم والده، الذي لقبه بعد مبايعته " بناصر الدين" وتلاه أقاربه ثم أشراف القوم ورؤساء القبائل والأعيان وبقية أفراد الشعب. ولعل الصورة التي تمت بها مبايعة عبدالقادر تحت شجرة الدردارة كان الدافع اليها اقتفاء أثر السلف الصالح، وتقليد الصورة الرائعة التي تمت فيها مبايعة الرسول- صلى الله عليه وسلم - في بيعة الرضوان تحت شجرة الحديبية والتي ذكرها المولى تعالى بقوله (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة - سورة الفتح، آية ١٧).

وبعد أن تمت البيعة توجه الأمير إلى مسجد معسكر، فاستقبله الجموع استقبال الملوك والسلاطين، ودخل المدينة، ومنها بيته حيث أخبر زوجته بالمسؤولية الكبرى التي أنيطت به، وما تتطلبه هذه المسؤولية من تفرغ لها وخيرها بقوله: " إن أردت أن تبقي معي من غير التفات إلى طلب حق، فلك ذلك، وإن أبيت إلا أن تطلبي حقك فأمرك بيدك لأني قد تحملت ما يشغلني عنك"[٤٧] . ثم توجه الأمير إلى المسجد فصلى بالناس إماما، ووقف خطيبا في الجموع الكبيرة - التي احتشدت لترى أميرها الجديد - خطبة جامعة وعد فيها وتوعد، وأمر ونهى، حاثاً فيها الناس على الانضباط والالتزام، داعيا إلى الجهاد والعمل. وبعد انصراف الأمير، انفرد العلماء لكتابة صك البيعة، فكتبه في مجلسهم العالم محمد بن عبدالقادر الشهير بابن آمنة خال الأمير[٤٨]، واكتفى عبدالقادر بلقب الأمير ولم يلقب بالسلطان حتى لا يغضب مولاي عبدالرحمان سلطان المغرب الذي كان يكن له كل الاحترام والتقدير. أرسل الأمير الوفود والرسائل إلى بقية القبائل والأعيان الذين لم يحضروا البيعة لإبلاغهم بذلك، ودعوتهم إلى مبايعته أسوة بمن أدى واجب الطاعة فلبى الجميع النداء وهرع الناس جموعا وفرادى، وبدأت الوفود تتوالى لأداء واجب البيعة للأمير الشاب، وانعقد بذلك مجلس عام حضرته جماهير عريضة من أفراد الشعب يتقدمهم الأعيان والأشراف، وزعماء القبائل والعشائر وجرى فيه أداء البيعة الثانية العامة في ١٣ رمضان سنة ١٢٤٨ هـ الموافق لـ٤

فبراير ١٨٣٣[٤٩] والتي يمكننا القول بشأنها أنها استفتاء شعبي حر اختار فيه القوم بكل حرية ومسؤولية الشخص المناسب الذي سيتولى شؤون هذه الدولة والإمارة الفتية لتدخل الجزائر بعهده مرحلة جديدة من" الكفاح والجهاد المنظم المتشبع بروح القومية التي طالما أخمدها التعالي العنصري والنزاع القبلي ."[٥٠]

٤ - إمـارتــه:

وبعد هذه المبايعة المباركة التي أداها جميع أفراد القبائل كبيرها وصغيرها، شريفها ووضيعها، والتي اعتبرها الأمير عبدالقادر أمانة كبرى حمّله الشعب إياها وطوقاً شريفاً أحاط الأهالي عنقه بها عن قناعة واختيار، فبادر أميرنا الشاب تدعمه إرادة شعبية هائلة، وتحدوه عزيمة جبارة إلى النهوض بهذه المسؤولية الجبارة" مقتفيا آثار أسلافه وأجداده الأدارسة الذين كانوا ملوكا في المغرب الأقصى والأوسط والأندلس فتمكن حبه في قلوبهم وبذلوا أنفسهم في طاعة وامتثال أمره[٥١].

أدرك عبدالقادر للوهلة الأولى أن النظام والاستقرار والامانة هي الدعائم الأولى لبناء صرح الدولة الفتية، ولمواصلة الجهاد ولن يتحقق له ذلك إلا بإنشاء كيان قوي عصري يجمع فلول هذه الجماهير، ويوحد تلك القبائل المتفرقة، ففي وحدتها قوة الإمارة ومناعتها، لتتمكن من مقارعة فرنسا الغازية ومواجهتها الند للند، ولتكتسب مقاومته صفة شرعية تجلب إليها الدعم والتأييد.

فكان أول ما سعى إليه الأمير في بناء دولته" أنه تجنب أخطاء الحكم التركي الذي جعل ممثليه في الجزائر عرضة للخطر وكراهية الناس، فعمد إلى بناء إمارة أساسها إخلاص الحكم وثقة المحكومين"[٥٢]، لأن الأمير يدرك أن بقاء الدولة والحكم لن يتأتى بحال من الأحوال إلا إذا كانت الثقة متبادلة بين الحاكم والرعية. وعبد القادر وعى الدرس من سياسة الأتراك التي كانت منعزلة عن الشعب، منغلقة على نفسها، منعدمة الصلات والروابط بينها وبين الجماهير، مما عرضها للزوال والانحلال" وفي هذا المنعرج

التاريخي الخطير برزت (الشخصية) البطولية للأمير عبدالقادر معززة بسند شعبي قوي ومرفوعة على أكتاف بيعة تكاد تكون جماعية وفي هذه الإمارة، وفي طريقة ظهورها، بعث الشعب من جديد، وتقلد أمره بدافع من أعماقه، وألقى بكل ثقله في ميدان الاستشهاد، لا تعرقل انطلاقته أموال مخزونة، ولا يجذب نظره إلا بريق السيف". [٥٣]

واستغل الأمير ما في جعبته من تجارب سابقة اكتسبها من رحلاته، وخاصة مروره بمصر واعجابه بما حققه واليها محمد علي فالتفت إلى أحوال الإمارة بغية تعميرها وتحديثها من جميع الجوانب، فبدأ في تشييد الحصون والقلاع وبناء المصانع، والاهتمام بالعلم وإكرام أهله، وكيف لا وهو العالم الفقيه الذي يدرك ما للعلم من مكانة في عصر كعصره لإقامة دولة حديثة قوية لا تزول بزوال الحكام.

وقد أتاحت له مرحلة الهدوء والاستقرار التي نعمت بها البلاد في الفترة الممتدة من ٣٠ أيار ١٨٣٧ إلى ١٩ تشرين الثاني ١٨٣٩م الفرصة السانحة للعمل بدون هوادة، لترسيخ وفرض الاستقرار والنظام وتوفير الموارد المالية والبشرية لدولته الفتية، لأن عبدالقادر كان يعي جيدا أنه في صراع قاس مع الزمن ومع العدو وأن فرنسا لن تفتأ إلا قليلا ثم تهاجم الدولة الناشئة، وقد صدق حدس الأمير ذلك أن فرنسا كانت تتحين الفرص لنقض معاهداتها كلما وجدت إلى ذلك سبيلا، لأن الاستعمار لا يعرف للعهود والمواثيق قيمة ولا يوليها اعتبارا، همه الأكبر يكمن في مصلحته وماعدا ذلك فهو مباح، فالغاية تبرر الوسيلة، فكانت معاهدات ومواثيق الدول الاستعمارية كما يصفها الأمير شكيب أرسلان" هي في الغالب محطات استراحة بين الحملة والحملة، ومنازل استجمام بين مراحل الحرب لا غير، بحيث لايعدم عذرا لدى توفر القوة في نقض المعاهدات التي لم يبررها منذ البداية إلا على نية النقض". [٥٤].

ولإعطاء العهد الجديد القوة اللازمة، سعى الأمير إلى استخدام رجال تتوفر فيهم القدرة والكفاءة والالتزام، ليحملوا معه عبء المسؤولية الثقيل أمام الله وأمام الشعب،

فحرص عبدالقادر أيما حرص على اختبار معاونيه، يساعده في ذلك رأيه الثاقب المصيب وبعد نظره، وباعه الطويل في تقدير معادن الرجال لوضع الرجل المناسب في المكان المناسب" فاستوزر محمد بن العربي، واستكتب ابن عمه السيد أحمد بن أبي طالب، والسيد الحاج مصطفى بن التهامي، والسيد الحاج محمد الخروبي، وعين لحجابته محمد بن علي الرحاوي، وولى الحاج الجيلاني بن فريحة ناظر خزينة المملكة، ومحمد بن خاخة ناظر الخزينة الخاصة، والحاج الطاهر أبو زيد ناظرا على الاوقاف والسيد الحاج الجيلاني العلوي مأمورا على الأعشار والزكاة بأنواعها، وعين لنظارة الأمور الخارجية الحاج الميلود بن عراش ". [٥٥]

وكعادة كل دولة في اختيار شعار لها، وراية تتميز عن غيرها جعل الأمير رايته من الكتان الحريري " أعلاها وأسفلها خضراوان، أما لون القسم الأوسط فأبيض، رسمت فيه يد مبسوطة، وكتب حولها بشكل دائري عبارة " نصر من الله وفتح قريب، ناصر الدين عبدالقادر بن محيي الدين " والرسم والكتابة كلاهما مطرزان باللون الذهبي[٥٦]، كما عين الأمير شخصا معلوما لحمل هذه الراية التي تتقدم موكب الأمير في رحلاته وجهاده.

وبعد ما أرسى الأمير قواعد إمارته الفتية قسمها إلى مقاطعات إدارية تسهيلا في إدارتها وتخفيف الاعباء عن حكومته المركزية، فقسمت دولته إلى ثلاث مقاطعات هي: معسكر، مليانة، تلمسان، متخذا مدينة معسكر عاصمة لدولته الناشئة ومقرا لإقامته" تأسيسا لأهل غريس وتطييباً لنفوسهم لأنهم كانوا دعاة هذه الإمارة وكانت منها حركته ونهضته، وفيها أولا قراره، وبأنجاده كمل أمره وأينع آسه وعراره". [٥٧]

ولما دانت للأمير مناطق اخرى واتسعت رقعة إمارته، أصبح تقسيمه الإداري كالتالي:

- مقاطعة معسكر: عاصمتها مدينة معسكر وخليفتها الحاج مصطفى بن أحمد التهامي الذي كان مسؤولا عن كتابة ديوان الأمير.

- مقاطعة تلمسان: عاصمتها مدينة تلمسان، خليفتها السيد محمد البوحميدي الولهاصي.

- مقاطعة مليانة: عاصمتها مدينة مليانة، خليفتها السيد محيي الدين بن علال القليعي، ثم خلفه السيد محمد بن علال .

- مقاطعة التيطري: عاصمتها مدينة المدية، خليفتها السيد محمد البركاني .

- مقاطعة مجانة: عاصمتها مدينة سطيف، وقد تداول عليها كل من السادة محمد بن عبدالسلام المقداني، ومحمد الخروبي، ومحمد بن عمر العيسوي.

- مقاطعة الزيبان: عاصمتها مدينة بسكرة، وتعاقب على رئاستها كل من السادة فرحات بن سعيد، وحسن بن عزوز، ومحمد الصغير بن عبدالرحمان بن احمد بن الحاج .

- مقاطعة الجبال: عاصمتها مدينة برج حمزة (البويرة) وخليفتها السيد أحمد بن سالم الدبيسي.

- مقاطعة الصحراء الغربية: وخليفتها السيد قدور بن عبدالباقي.

وهكذا أصبحت مقاطعات الدولة في أوج قوتها ثماني ، كما هو مبين أعلاه ، وقسمت كل مقاطعة إلى دوائر على رأس كل منها حاكم يدعى" آغا" وقسمت الدائرة إلى عدد من القبائل ، يرأسها ضابط إداري يسمى القائد ، وتحت القائد مسؤول آخر هو الشيخ ، والذي يشرف على عشيرة من عشائر القبائل .

وهذا التنظيم الدقيق الذي أخذ فيه الأمير بعين الاعتبار العلاقات البشرية والأوضاع الاجتماعية العامة السائدة في ذلك العصر" يكشف عن تفهمه لحاجة قومه لنظام يكفل لهم الارتقاء من عهد الإقطاع والقبيلة ، إلى عهد التعايش الاجتماعي والالتزام نحو بعضهم ونحو الدولة "[٥٨] حتى أن الاستعمار نفسه لم يتمكن " من اختراع ماهو أفضل وأربط منه عندما آل إليهم حكم البلاد فيما بعد ، فاكتفى باعتماده كما هو دون أن يدخلوا عليه تعديلا يذكر .[٥٩]

٥ - دولة الأمير الوطنية:

أدرك الأمير منذ الوهلة الأولى التي تصدى فيها لتحمل المسؤولية قيمة ودور العلم والثقافة في بناء الإنسان ، ورقي الدولة وقوتها وقيمتها ، فأولاهما الحاكم الشاب

أهمية كبرى وقسطا وافرا من العناية والاهتمام وبذل كل ما في وسعه لنشر العلم والمعرفة بكل فروعها في أوساط رعيته وخاصة الشباب منها الذي يمثل الأمل المنشود لدولة المستقبل . ولم يكن ليتهيأ له تحقيق هذا الأمل السامي إلا بالعمل والاستعداد الجيد لتهيئة الظروف المناسبة حتى تسير حركة التعليم والثقافة في إمارته على الوجه الحسن الذي ارتآه لهما الأمير.

وكان حجر الأساس في هذا المجال هو الاهتمام بالكتب والمراجع مهما كانت قيمتها العلمية والأدبية ولذلك"كان الأمير –رحمه الله – يبذل كل غال ونفيس في استحضار الكتب وجلبها من الآفاق، وسواء كان ذلك عنده بالشراء أو النسخ أو النقل، وأصدر في ذلك أمره للجند بالمحافظة التامة على ما يقع بأيديهم من الكتب متوعدا في أمره هذا كل ما يبلغه عنه أنه أهان كتابا أو استنقله أو احتقر شأنه، فإنه كان يعاقب على ذلك عقابا شديدا، وكان يقدم جوائز ومكافآت مشجعة لكل من يأتيه بكتاب أو مؤلف مهما كان نوعه"[٦٠] إدراكا من عبدالقادر لقيمة الكتاب وخاصة في ذلك العهد حيث" الكتب حينئذ قليلة في البلاد"[٦١]، فمخطوط واحد يلزم لكتابة نسخة واحدة منها عدة أشهر، وهو بالزمن الطويل بالنسبة لدولة الامير التي تعيش صراعا رهيبا مع الزمن والأحداث.

ونجحت سياسة الامير في هذا الميدان نجاحا عظيما، فجمعت لإمارته الكتب المتنوعة لشتى العلوم، أسس لها مكتبة ضخمة " يسرها لطلاب العلوم والزوايا والمدارس والمساجد، وفرق الجيش تيسيره " الميرة والذخيرة" للنظاميين المتطوعين، أليسوا جميعا يحاربون؟، وأودع بقية الكتب المخطوطة في حصن " تاقدامت" مع اعز نفائس الدولة ووثائقها واسرارها ."[٦٢]

وحرصا من الامير على هذه الكتب والمؤلفات فقد حملها معه لما سقطت تاقدامت بيد العدو – مع عاصمته الجديدة " الزمالة " التي يطير بها ويتنقل بساكنيها من مكان لآخر، وحين فقد الامير عاصمته الزمالة واستولى الفرنسيون عليها، أتلفوا كل ما بها

من الكتب والنفائس من شتى العلوم، فكان وقع هذا الامر على الأمير شديدا وعظيما وفي ذلك يذكر الجنرال بول آزان " PAUL AZAN " أن الأمير كان يومئذ يعتريه الالم والاشمئزاز، وهو يتبع خطوات الفرنسيين – نحو المدية – يجمع الاوراق الممزقة المتناثرة من كتبه الثمينة على طول الطريق، تلك الكتب التي كانت قد كلفته كثيرا من الوقت والجهد في جمعها، وبفقد هذه المكتبة، فقدت ثمرة تعب أجيال في التمحيص والجمع والنسخ". [٦٣]

واختار الأمير لمن يتولى مهمة التربية والتعليم رجالا أكفاء مشهورين بتبحرهم في مختلف العلوم لينشروا رايته، واهتم بأوضاعهم ماديا ومعنويا فعين لهم مرتبات وأجورا حسب مراتبهم، وشجعهم على التأليف والإبداع وعينهم في سائر مدن وقرى الإمارة الفتية، يعلمون الناس ويحببون إليهم العلم والثقافة" وتشجيعيا في طلب العلم واحتراما له، فإن الأمير عبدالقادر أعطى أوامر باحترام المثقفين أينما وجدوا، وأنى كانوا كما أمر بإعفائهم حتى من الضرائب والمطالب على اختلاف أنواعها وأصنافها"[٦٤]

بل بلغ من احترام الأمير للعلم وأهله " أن أعفى طلبة العلم من الانخراط في سلك الجندية ليتفرغوا لطلب العلم "[٦٥] وكثيرا ما روت كتب التاريخ التي تناولت سيرته من أنه كان يباشر بنفسه إلقاء الدروس المختلفة في شتى العلوم وهو في حالة حرب ونزال، وبقيت هذه الصفة ملازمة له حتى آخر أيامه.

وكان حب الأمير لطلاب العلم وتقديره لهم حافزا قويا لهم في الاجتهاد والجد فانتشر العلم وأقبل عليه الناس أفواجا وازدهرت الحياة العلمية على الرغم من ان طرق هذه التعليم ومراحلها بقيت كما عهدناها في العهد التركي من مرحلة ابتدائية وثانوية وعالية، يتدرج الطالب من مرحلة لأخرى حسب استيعابه وقدرته على التحصيل، متمتعا بكل المزايا المادية والعلمية التي وفرتها الإمارة الفتية لطلاب العلم.

كما تطلع الأمير إلى إدخال العلوم الحديثة في مناهج الدراسة ليواكب العصر،

كالطب للعناية بالحالة الصحية الشعبية، ففكر في بناء مدرسة عليا للطب تدرس فيها مختلف العلوم التي تتصل بهذه المهنة، ولكن الظروف لم تسمح له بذلك ورغم هذا فإن الأمير قد ابتنى فعلا كما يذكر صاحب تحفة الزائر" مستشفى بكل مقاطعة وزوده بأربعة أطباء مهرة في ذلك العهد، كما أنشأ مستشفيات خاصة لمرضى العساكر وهي من الأمور التي أحدثها الأمير وحاز بها الفضل على من تقدمه من حكام المغرب وأمرائها"[٦٦]

وهكذا تجلت مجهودات القائد الشاب في هذا المجال، فعمل فيه ما استطاع إلى ذلك سبيلا لأن الأمير كان يعلم أن نشر العلم والثقافة في إمارته " لم يكن إجراء إداريا فحسب وإنما هو أداء فعال لليقين في صحة ما يعتقد ويعلم، وتعلق " بالسلاح الذي لا يذبل عطاؤه حينا ليزدهر حينا آخر، فحروب رجل مثل عبدالقادر في بلد كالجزائر ضد أكثر دول العصر تقدما ووراثة لمخلفات حرب استمرت ثلاثة قرون بالمغرب، وقرنين بالمشرق، لا بد أن يكون في بعض دوافعها ونتائجها فضلا عن وسائلها ومظاهرها حربا ثقافية ."[٦٧]

٦ - القضاء في دولة الأمير:

بعد ان تم للأمير تقسيم البلاد إداريا أقبل عبدالقادر على الوظائف الشرعية ينظمها، فعين في كل منطقة أو دائرة واسعة قاضيا عالما يفصل في الأحكام على مذهب الإمام مالك، علما من الأمير بأن العدل أساس الملك وأن الحق والقانون فوق الجميع، وقد وضع الأمير شروطا لمن يولى هذا المنصب أهمها أن يكون فقيها نزيها، مشهودا له بالعفاف، والقيام بأمور الدين .

وحتى يضمن الحاكم الشاب السير الحسن لسلك القضاء، اهتم بالجانب المادي لهؤلاء القضاة وعيا منه بمدى تأثير المادة على الناس" فجعل لكل قاضي مرتبا شهريا محترما قدره ١٠٠ دورو (٥٠ فرنكاً)مضافا إليها رسوما يتقاضاها على بعض العمليات التي يقوم بها ."[٦٨]

وقد فصل الأمير بين القضاء المدني والعسكري، فجعل لكل قسم قاضيا خاصا يتولى البت في القضايا المطروحة أمامه ينتخب لمدة سنة، قابلة للتجديد.

ولشدة حرصه على السير الحسن للعدل في دولته " ألحق بكل مجلس إقليمي كاتبين يقوم الأكبر منهما بدراسة الفتاوى التي تصدر عن القاضي فيبت بالثانوية منها، ويحمل الأساسية إلى معسكر للحكم فيها " وربط إدارة هؤلاء القضاة بمراجعة العلامة قاضي القضاة السيد أحمد بن الهاشمي المراحي رئيس مجلسه الخاص.[٦٩]

كما حرص على أن تكون أحكام القضاء المدني والعسكري وفقا للشريعة الإسلامية التي جعلها الامير المصدر الأساسي والوحيد لحكم دولته فجاءت الأحكام مستمدة من الكتاب والسنة والاجتهاد، سعيا من الأمير في بعث دولة تذكر الشعب بعهود الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، ولتمسح الصورة السيئة لحكم الاتراك باعتبار أن نجاح الدولة الفتية في رأي عبدالقادر –لا سبيل إليه إلا بإزالة الفساد الموروث " والعمل على تغيير العلاقات القديمة، أوعلى الأقل تعديلها بقدر ما تتيح بذلك الظروف والإمكانات، فيحقق الشعب الجزائري وحدته"[٧٠].

وقد آتت هذه السياسة أكلها فالتف الشعب حول أميره الفتي واجتمع شمل الأمة حول منهاج واحد ضاربين صفحا عن خصوماتهم ونزاعاتهم، هدفهم الوحيد بناء دولة قوية لمجابهة العدو المتربص بهم تربص الذئب بقطيع الغنم.

وكانت الأحكام القضائية تنفذ في الحال وخاصة إذا كانت تتسم بالخطورة كالذنب في حق الوطن، والإدانة في قضايا التعامل مع العدو، والجوسسة له وخرق الحصار الاقتصادي المضروب عليه، وتميزت هذه الاحكام بالشدة والصرامة لتكون ردعا للغير، وهي غير قابلة للاستئناف" فقد كان المبدأ الذي يسير عليه الامير في أحكامه " أن من أعان العدو بماله أخذ ماله، ومن ساعده بذراعه قطع رأسه، ومن فضل

الامير وعد له أنه متى أشكل عليه الأمر في قضية توقف في إصدار الحكم بشأنها وكاتب علماء مصر والمغرب ليستفتيهم فيها . "[٧١]

وهكذا بفضل رعايته للقضاء واهتمامه به وعدم التراخي في تنفيذ الأحكام، ساد العدل والأمن سائر أنحاء الإمارة وتذوق الشعب حلاوة العيش تحت راية حكومة شعبية وطنية، فاختفت الجرائم وهدأت الأحوال بعد الفوضى التي شهدتها البلاد عقب انهيار الحكم التركي بل وفي أيامه .

وإلى جانب ذلك اهتم الأمير بمحاربة الفساد الاخلاقي، والآفات الاجتماعية فألغى البغاء ومنع شرب الخمر وتعاطيها في جميع أنحاء إمارته، كما حرم على جنده لعب الورق" ومنع على الرجال استعمال الذهب والفضة، إلا في الاسلحة وعلى الخيول، وأمر بالصلوات الخمس أن تكون في الجوامع، وأحدث أمورا محسنات للإمارة والمملكة لم تكن موجودة . "[٧٢]

فلا عجب إذن بعد هذا أن يرى الشعب مظاهر الامن والاستقرار حتى أن الطفل الوحيد" يستطيع أن يطوف ملكه وعلى رأسه تاج من ذهب دون أن يصيبه أذى "[٧٣]، وهل بعد هذه الصورة من تعليق سوى أن نورد قولة للأمير الحاكم نفسه، توضح قولا وعملا جهوده في هذا الميدان حين يقول" اعلموا أن الغاية الوحيدة لقبولي هذا المنصب أن تكونوا آمنين على أنفسكم وأعراضكم وأموالكم، مطمئنين على بلادكم متمتعين بوظائفكم الدينية ولا يمكن أن ابلغ مرادي من ذلك إلا بمساعدتكم مالا، ورجالا "[٧٤] .

٧ - بناء وتنظيم الجيش:

تقلد الأمير زمام السلطة في إمارته وهو يعلم أنه ينطلق من العدم، وأن عليه أن يكون عند حسن ظن مبايعيه، ولن يأتي له ذلك إلا بإنشاء دولة قوية، فأين تكمن ياترى هذه القوة ؟ إنها ولا شك تتجلى في القوة العسكرية من جيوش وعتاد، فإلى جانب كونها

تعطي صورة مهيبة للإمارة فإنها أيضا أداة لفرض النظام والأمن في ربوع الدولة الفتية التي انتشرت بها الفوضى والاضطراب بعد رحيل الاتراك، ضف إلى ذلك أن التنظيم الاجتماعي في الجزائر حين تولى الأمير السلطة، كان يعتمد أساسا على القبيلة، والحمية العصبية فلا يدين الفرد إلا لقبيلته أو عشيرته، أما ما يعرف بالوطنية والقومية فقد كان مفهومها غير متقبل أو غير متعارف عليه، وحتى في حالة الحرب أو المنازعات كانت القبائل تجمع أفرادها وفرسانها لتغزو بهم أو تنال بهم عدوا مهاجما، وفور انتهاء المعركة يعود كل فرد إلى عمله المعتاد، فلم يكن نظام الجندية مطبقا في القبائل .

ولهذا اتجهت نظرة الأمير إلى إعطاء هذا الجانب الهام الأولوية المستحقة وإلا فإن سلطانه سيظل دوما عرضة للخطر والزوال، فسينهار مع أول مواجهة حقيقية مع العدو وأي عدو ؟ إنها فرنسا صاحبة الجيوش المدربة المنظمة والعتاد الحربي الحديث والضباط الكبار الأكفاء والجنود النظاميين ذوي الكفاءة العالية تدريبا وقتالا، فكانت هذه الحقائق الثابتة غير خافية على الأمير الفارس لأنه يعلم مدى البون الواسع بين الجيش النظامي المدرب وبين الحشود المتطوعة اللا نظامية، كما أنه أيقن أن الحماسة وحدها لا تكفي وأن الشجاعة بلا تنظيم وإعداد تهور ومجازفة، وأن مقاومة المحتل ينبغي أن يعد لها العدة الكاملة، ويهيىء لها كل الظروف المادية والبشرية، فالقضية أصبحت صراعا على البقاء والدوام، واستفاد الأمير من تجارب غيره في هذا المقام "حيث كانت ثورات القبائل المتفرقة تضع نصب أعينها النضال قبل التنظيم والإعداد، ولم يستطع زعماؤها أن يتجاوزوا حدود القبيلة أو الإقليم"[٧٥] فوعى الأمير الامور جيدا وبعد رجوعه من واقعة الدوائر عقد مجلسا عموميا من رجال الدولة وأعيان الرعية وزعمائها، وخطب فيهم خطبة أوضح فيها فوائد العسكر النظامي ومنافعه" وأخبرهم أنه اعتزم على تنظيم عدد منه كاف، فأجابه الجميع إلى ذلك ووافقوه عليه، وطفق المنادي ينادي بأعلى صوته في الأسواق: ليبلغ الشاهد الغائب أنه صدر أمر مولانا ناصر الدين بتجنيد،

وتنظيم العساكر من كافة البلاد فمن أراد الدخول تحت اللواء المحمدي ويشمله عز النظام، فليسارع إلى دار الإمارة" معسكر" ليقيد اسمه في الدفاتر الأميرية "[٧٦]

وهكذا بدأ عهد جديد في تنظيم جيش وطني فتوافدت الجموع التي رأت في نفسها القدرة على حمل السلاح، تتطوع بنفس راضية لتنال شرف الجهاد والقتال تحت لواء الأمير عبدالقادر . وبذلك اعتبر الأمير المجاهد " أول من كون جيشا وطنيا منظما وموحدا بناه من العدم وهيأ له الوسائل وأنشأ مصانع تنتج الأسلحة الملائمة مستعينا بخبرة الإسبانيين والفرنسيين وغيرهم "[٧٧] .

ولم يول الامير مهمة الجيش أحدا بل تصدى بنفسه لتدريبه وتنظيمه والإشراف عليه لما يمثله هذا القطاع من أهمية بالغة فعليه تتوقف قوة الدولة وعزتها ومناعتها، فلا بد إذن أن يكون الإشراف مباشرة من الامير نفسه وهو يعلم الصغيرة والكبيرة فيه فقسم جيشه إلى ثلاث فرق: فرقة المشاة- فرقة الخيالة- الفرقة الثالثة مدفعيون"[٧٨] ووضع دستورا أو قانونا عسكريا" يحتوي على آخر التفاصيل المتعلقة بالانضباط والرواتب وملابس جنده، وكانت هذه التنظيمات تقرأ مرتين في الشهر لمختلف الوحدات وكانت تتخللها الوصايا والعهود للسلوك الطيب. [٧٩] "

وقد تصدى أحد كتاب الجند - بتكليف من الأمير لوضع رسالة جامعة لكل القوانين والضوابط والنواهي والاوامر، وكل ما يتعلق بأمور الجند سماها (وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب ويليه ديوان العسكر المحمدي المليانى) استهلها كاتبها بإيراد التكليف الوارد من الأمير بقوله: " وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغائب مما أمر بتنفيذه سيدنا ومولانا أمير المؤمنين مولانا الحاج عبدالقادر نصره الله آمين"[٨٠] . وقد أوضح مؤلف وكاتب الرسالة كل ما يتعلق بالجند من نظام ولباس وعدة وعتاد وأسماء الضباط والقواد والجنود، وهي وثيقة هامة لا يستغنى عنها في دراسة

الجوانب العسكرية لدولة الامير عبدالقادر الجزائري.

وعن طريق هذه السياسة الحكيمة المنتهجة بدأت النواة الاولى لجيش نظامي يتشكل من أفراد شعب" لم يعرف التجنيد الإجباري حتى أيام الحكم التركي، شعب تثور طبيعته حتى من مجرد فكرة التجنيد الإجباري". [٨١]

وبطبيعة الحال فلا بد لهذا الجيش الفتي من عتاد وأسلحة حتى يقوم بالدور المنوط به على أحسن وجه، فلا جيش بلا سلاح ومتى كان التسليح والتدريب جيدان فإن الجيش يصل إلى درجة يمكن الاعتماد عليه داخليا وخارجيا، فانظر إلى قوله تعالى داعيا إلى الأخذ بالأسباب (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) سورة الانفال آية٦٠ – ولذلك جعل الأمير من تسليح الجيش مهمة أساسية قام بأعبائها أحسن قيام، وطرق كل السبل لتحقيق هذه الغاية النبيلة، فمن بين الإجراءات الأولى التي اتخذت لحماية عاصمة الدولة الجديدة هي تزويدها بالمدافع، كما وجه بعثات كثيرة إلى مختلف الدول لشراء الاسلحة، اتفاقا مع سياسته التي ترتكز على الحصول على السلاح من أي جهة وتنويع المصادر ولنستمع إلى تشرشل وهو يسجل على لسان الأمير قوله: " بالإضافة إلى القوات التي ترسلها إلي القبائل الخاضعة لي، وقوات حلفاء . . . . كان لدي مؤخر جيش نظامي مكون من ثمانية آلاف جندي (٨٠٠٠)، وألفي فارس أو صبائحي و(٢٢٤٠) مدفعاً وكان عندي عشرون مدفع ميدان، دون ذكر مخزن كبير من المدافع الحديدية والنحاسية التي خلفها الأتراك، والتي كان كثير منها في الواقع غير صالح للاستعمال".

كما سعى جهده لاستيراد السلاح من الدولة الوحيدة التي عارضت الغزو الفرنسي– حفاظا على التوارن الدولي ثم تغاضت عنه – وهي انجلترا، ولكنه فشل. ونظرا لخطورة تجارة السلاح " فإن عبدالقادر لم يسمح لقواته بشراء الأسلحة والذخيرة، وإنما حصر هذا العمل به وبمن ينتدبه. [٨٢]

وليس معنى ماتقدم أن الأمير قد أهمل الصناعات الحربية الوطنية واعتمد على الاستيراد فقط، بل إنه سعى جاهدا لبناء معامل الذخيرة والسلاح، في كل من" معسكر" و"تاقدامت" مستعيناً بالخبرة الاجنبية " فجاء برجال الصناعة الاختصاصيين في عمل السلاح من الخارج فكان منهم الإسبان والطليان والفرنسيون أيضا[٨٣] وكان الامير يختار المواقع الاستراتيجية الحصينة، كاختياره " لمليانة" التي بنى بإحدى ضواحيها مصنعا هاما لصنع الأسلحة والذخيرة الحربية، نظرا لما تتمتع به هذه المدينة من موقع حصين، ومن توفر المادة الأولية بها، بالإضافة إلى صلابة سكانها وبلائهم في الجهاد، والدفاع عن الوطن وهكذا أوجد الأمير صناعة حربية محلية، تعتمد على الموارد الذاتية، وعيا منه بأن السلاح أداة ضغط، فوجب الاعتماد على النفس، وبدأت مصانع الأمير في انتاج سلاح جزائري خالص، فهذه سيوف مصقولة، وتلك مدافع وبنادق تتوعد العدو بوخيم العاقبة، وبالإضافة إلى ماتنتجه المصانع من أسلحة، فقد كان جيشه يتسلح بما يغنمه من معاركه مع الفرنسيين.

ولانعدام وسائل النقل المتطورة، في دولة الأمير، اعتمد الوسائل التقليدية من بغال وحمير وخيول التي حاول عبدالقادر توفيرها لفرسانه فجعل لها نظارة خاصة، وفي هذا يورد تشرشل على لسان الأمير قوله " فقد أعطيت الأمر لخلفائي أن يقبل بدل الضرائب والغرامات، المواد الاستهلاكية والبغال والإبل وبالأخص الخيول، وكنت أستفيد من هذا كله فأركب فرساني على الخيول وأجعل البغال والإبل وسائل النقل"[٨٤] وكان يطبع على كتف خيل الأمير حرف (S) وإذا قتل الفرس في المعركة فعلى الفارس أن يقطع الحرف من الحصان" ويأخذه إثباتا لذلك وفي حال فقدان عدد من الخيول إثر معركة ما، يصار إلى استبدالها بأخرى من المنطقة التي تحصل فيها المعركة. "[٨٥]

ولحكمة القائد المدرب الواعي راح الأمير يرتب الجيش ويدربه وينظمه ويسلحه فيحسن تسليحه بقدر ما أتيح له ذلك، فأنزل بالعدو ضربات موجعة، رغم البون والفرق الشاسع بين الخصمين، كما كان الأمير المجاهد يتحمل ضربات عدوه بصبر وجلد عظيمين

أدهشت الأعداء قبل الأصدقاء، وكان دائم الحضور في ساح الوغى باسمه تارة وبنفسه أخرى، فلا عجب إذن أن " لقبه الفرنسيون بأبي ليل وبأبي نهار"[٨٦] .

ثم إن انتهاج عبدالقادر في تدريبه لجيشه لمبادئ قتالية خاصة رأى أنها صالحة لجنده، كانت نابعة من معرفته بطبيعة البلاد بجبالها ومسالكها فاستفاد من هذا، في أن يكون دوما صاحب المبادرة في النزال، ومفاجأة العدو ومهاجمته من حيث لا ينتظر.

وقد شابهت معاركه آنذاك حرب العصابات الحالية، فنأت عن الحرب النظامية واعتمدت أسلوب المباغتة والكر والفر بما يلائم قواته، وليس هذا جهلا من الأمير بخطط المعارك " ولكنه فضل المباغتة والكمائن ورفض التقيد بقانون قتال أو تنظيم معين ."[٨٧]

فها هو ناظر خارجية الأمير – المولود بن عراش – يوضح في هذه المقولة المفحمة التي رد بها على الجنرالات أساليب جيش الامير في القتال بقوله: " إننا لا نحاربكم محاربة نظام وترتيب، ولكن محاربة هجوم وإقدام، ولو فعلت ما قلت وخرجتم بهذه القوة، كنا نتقهقر أمامكم متوغلين في الصحراء بأهلنا وأطفالنا، وفي هذا التقهقر نناوشكم القتال حتى لا ترجعوا عنا، ثم نصابركم حتى تضعف شوكتكم وتلين قوتكم، ومتى سنحت الفرصة وتورطتم في فيافي الصحراء، قلبنا الكر عليكم وأحاطت جيوشنا بكم من كل ناحية، وتكون ذخائركم نفذت، وقوتكم ذهبت، وعساكركم لحقها التعب وأضر بها السغب، فحينئذ ماذا كنت تصنع أيها الجنرال"[٨٨] ؟فبهت الذي سأل

٨ - التنظيم الاقتصادي:

وإلى جانب اهتماماته بالتعليم وتنظيم الجيش فإنه، لم يهمل الجوانب الأخرى التي تساعد على تقوية دولته ودفعها خطوات إلى الأمام" وإشعار الأهالي برحمة الحكم الوطني الذي حرموا منه قرونا حتى يتحمسوا له ويدافعوا عن كرامتهم التي حققها لهم

ذلك الحكم الشعبي النبيل ."[٨٩] من جهة ومن جهة أخرى سعى الأمير إلى إرضاء ضميره الديني والوطني، لأنه كان ينظر إلى الإمارة على أنها مسؤولية جسيمة تحملها مكرها لافتقار الشخص الكفء القادر على الاضطلاع بها .

اهتم الأمير بالجانب الإقتصادي اهتماما كبيرا لتحسين حياة الشعب، وإيجاد الموارد الكافية لدولته، ونصب جهده على تطويره وتذليل العقبات التي تواجهه ففي ميدان التجارة احتكر عبدالقادر التجارة الخارجية لإمارته وخاصة منها الحبوب والأصواف بموجب المعاهدات التي وقعها الأمير مع فرنسا، واستعان في هذا المجال بخبرة اليهود الذين يشهد لهم الجميع بالباع الطويل في هذا المجال.

ولتسهيل الإجراءات المالية أنشأ الأمير دارا لصك النقود وأطلق على عملته اسم المحمدية والنصفية، وكتب على وجه المحمدية الآية الكريمة (إن الدين عند الله الإسلام) وكتب على النصفية(حسبنا الله ونعم الوكيل)[٩٠]

وإدراكا منه بأن العلاقات الخارجية مع الدول الأخرى تعتبر جانبا هاما لإضفاء الشرعية القانونية على دولته من خلال الاعتراف الدولي بها فيضع بذلك فرنسا أمام الأمر الواقع خاصة وأن الظروف آنذاك كانت مهيئة نسبيا أمام الأمير نتيجة للصراع بين مختلف الدول الاستعمارية حول مناطق النفوذ، فسعى جهده تؤازره في ذلك حنكته السياسية وسلامة تفكيره، وقدرته الدبلوماسية على مسايرة الأحداث والتفاعل معها، فأتيح له أن يوثق صلات دولية واسعة مكثفة ومتعددة ومتنوعة مع كثير من ساسة العالم وقادته العسكريين والسياسيين والمفكرين، وحظي بالتقدير والإكبار من طرف الجميع فتعددت مراسلاته واتصالاته مع الإنجليز عن طريق قناصلها في طنجة ومدريد طالبا التأييد والمساعدة، عارضا بعض الامتيازات عليهم، لما عرف عن الإنجليز من شدة المنافسة لفرنسا، واتبع ذلك مع الحكومة الأمريكية طالبا الدعم موضحا لها مواقفه من الاستعمار الفرنسي، مقابل امتيازات للأسطول الأمريكي، ونفس السبيل سلكه أيضا

مع اسبانيا التي كانت ترغب أيضا في منافسة الدول الاستعمارية الأخرى، ولكن اسبانيا في هذه الفترة لم تكن قادرة على دخول باب المنافسة لأوضاعها المتردية، فكان ردها على الأمير يشوبه التردد والتلكؤ والمماطلة رغم عروضه المغرية .

كما راسل الأمير السلطان العثماني عبدالمجيد طالبا يد العون في إطار الأخوة الإسلامية وما تفرضه على المسلمين من التكاتف والتعاون، كما توسط بعض خلفائه من شرق البلاد بينه وبين دايات تونس، فراسلهم وتبادل معهم الهدايا، ونفس الأمر مع سلطان المغرب إذ كانت اتصالاته به قوية نتيجة للجوار وقوة الوشائج التي تربط الشعبين الشقيقين، وسارت العلاقات مع المغرب طبيعية إلى أن اضطر السلطان المغربي إلى محاربة الأمير تحت تهديد فرنسا .

وإلى جانب هذا يذكر فيليب دستايور شنتران PHILIPPE D' ESTAILLEUR CHANTERAINE " أنه كانت للأمير اتصالات ومراسلات مع الساسة والمسؤولين في كل من روما، وبرلين، وفينا، وسان بطرسبورغ حيث كانت اتصالاته تتركز اساسا حول استقلال الجزائر وطلب التأييد، والتدخل لدى فرنسا لوقف الاحتلال"[٩١] .

ولم يقطع الأمير الأمل يوما حتى مع عدوه فرنسا، فحاول بناء علاقات طيبة معها خاصة أثناء الفترات التي تلي توقيع المعاهدات، فأصبح لدى الأمير وفرنسا ممثل لكل طرف يرعى مصالحه ومعترف به رسميا حتى ان الاتصالات لم تنقطع في فترات الحرب .

و هكذا ساس عبدالقادر هذه الإمارة الفنية وقادها وسط ظروف عصيبة لم تكن إطلاقا في صالحه على حد قوله : " وإذا أخذنا في الاعتبار الوقت القصير الذي كان علي أن أحقق فيه ذلك، فإن إصلاحاتي لم تكن قليلة الأهمية وعلى أية حال فقد برهنت إلى مدى ما كنت أريد تحقيقه[٩٢] " ضف إلى هذا أن الأمير لم يكن وريث زعامة سياسية وإدارية او عسكرية حتى نقول عنه أنه كان مهيئا مسبقا لإدارة دفة الحكم، ولكنه " كان رجل زاوية يحيا حياة بسيطة[٩٣] " وفد إلى التاريخ من باب التخيير

والاختيار، فقد " اختير للإمارة وفق شروط معلومة نهض بها نحو سبعة عشر عاما هو ونظراؤه من أهل الذكر وأولي العلم والمشورة والرأي، وكذلك القادرون على الحرب"[٩٤].

وإن المؤرخ المنصف ليقف موقف إجلال وحيرة أمام هذه القدرة العجيبة والعبقرية الفذة التي جعلت الشاب عبدالقادر " ينظم دولة فيحسن تنظيمها ويدون دواوينها ويضبط أمورها ويصك النقود ويربط لها علاقات متينة مع الخارج وينشر دعايتها ويكتسب لها الأنصار[٩٥] " .

ولعل افضل ما نسوقه في هذا المضمار شهادة أحد المؤرخين الفرنسيين – والحق ما شهدت به الاعداء –لا حباً في الأمير، ولكنها الحقائق تفرض نفسها يقول أوغستان برنار – AUGUSTIN BERNARD : "وقد أظهر الأمير بعد أن وسد إليه الأمر على الرغم من أنه ابن الزوايا والطرق حنكة سياسية وبراعة عسكرية فائقة، وكان يتمتع بصفات تدل على أنه خلق ليحكم، فكان بسيطا في لباسه، متواضعا في معشره، أنيقا جميلا شجاعا فارسا، وكان متدينا عن إخلاص ومن صميم فؤاده ولم يطلب الإمارة لإشباع أطماع نفسه بل ليقود أمته في طريق الفلاح كان قاسيا عند اللزوم، رحيما عند الاقتضاء وكانت شدته ولينه بحساب وتقدير، وقليل مثله في المسلمين وكان يدرك معنى الدولة إدراكا تاما، كما كان يدركه هو بكل تفصيلاته وجزئياته من النظام، والإدارة وجباية الضرائب وتنظيم الجيش، وكان أجل وأبرز أعدائنا في الجزائر[٩٦] " .

٩ - جهاده وحروبه:

بهذا التنظيم المحكم الذي أبداه الأمير في تكوين دولته استطاع أن ينظم أمور البلاد وأن يدخل مع فرنسا في معارك ومواقع كثيرة غير متكافئة البتة لا في العدد ولا في العدة، ومع ذلك استطاع انزال الضربات القاصمة والموجعة بتجمعات وجيوش فرنسا في أي مكان وزمان شاء، فقد كان زمام المبادرة بيده، ولم يستطع العدو أن ينال منه

حتى في الأوقات التي كان يظن أن الحلقة قد استحكمت من حوله كان الأمير يفلت منها بأعجوبة وقدرة رائعتين .

تجلت شجاعته وعبقريته في كثير من المعارك ولعل معركة مستغانم بالخصوص ستظل شاهدا على خبرة ومهارة كبيرة في الإلمام بفنون الحرب ، فبعد أن حاصر الأمير المدينة تقدم في مجموعة من أبطاله نحو السور قصد هدمه ، وأعملوا فيه معاولهم تحت وابل قنابل المدفعية الفرنسية التي لم يعبأ بها الامير وجنده ولاستحالة هدم السور ، أمر عبدالقادر بحفر خندق تحت الارض يصل المعسكر بأسوار المدينة وملأه بالبارود وأوقد فيه النار ليحدث بعدها انفجار كبير ولكن الضغط لم يكن كافيا ، فلم تأت العملية بأية نتيجة إلا أنها بقيت – بشهادة أعدائه – دليلا على خبرة الأمير في فنون الحرب آنذاك[٩٧] .

ولما توالت انتصارات الامير على الجيوش الغازية خاصة بين سنتي ١٨٣٢ – ١٨٣٤ اضطرت فرنسا إلى الاعتراف بدولته وعقدت معه معاهدة عرفت باسم معاهدة دي ميشال[٩٨] نسبة إلى الحاكم الفرنسي على وهران واعتبر المؤرخون مجرد التوقيع عليها انتصارا سياسيا وديبلوماسيا له ، حيث اعترفت فيها فرنسا " بسلطة الأمير على كامل الإمارة في مقابل إقراره لفرنسا بالسلطة على مدن الجزائر ، مستغانم ووهران وأرزيو"[٩٩] .

وبذلك انصرف إلى تدعيم وتقوية دولته الفتية والبحث عن أسباب القوة والمناعة لها ، وهو أمر لا يروق فرنسا – طبعا – فاختلفت الأسباب ونقضت المعاهدة ولم يمر عليها أكثر من عام واحد ، بسبب قبائل الدوائر والزمالة[١٠٠] التي أعلنت انضمامها ورضاها بالعيش تحت راية فرنسا ، مما أغضب الامير واعتبر هذا التصرف إخلالا بنص المعاهدة ، وكتب إلى تريزيل بقوله " إن كنت ولا بد معتمدا على انفاذ ما صورته أفكارك من إدخالهم تحت حوزتك فاطلب وكيلكم من عندي

واختر لنفسك ما يحلو وميادين المعامع تقضي بيننا، ومسؤولية إهراق الدماء واتلاف الأموال راجعة إليك وعليك". [١٠١]

ونادى الامير أن حي على الجهاد فلبى الناس النداء المقدس وجاؤوه على كل ضامر ومن كل فج عميق يدفعهم الحماس بنصرة الدين والوطن طاعة لأميرهم المفدى الذي بايعوه على أن يكونوا معه ورهن إشارته في السراء والضراء.

وماهي إلا جولات وصولات حتى استبان لفرنسا خطأها بنقضها المعاهدة وأنها لا قبل لهابمحاربة الأمير على الأقل في هذه الفترة وعلى الرغم من أن الصراع لم يكن متكافئا إلا أن قوات الأمير كانت مشبعة إيمانا وشجاعة وهو ما افتقدته جيوش الغزاة التي بلغ تعدادها بعد نقض المعاهدة دي ميشال – DE MICHEL الخمسة آلاف جندي من المشاة، وفرقة من الخيالة، وأربع مدافع من القطع الكبيرة، وعشرين عربة تحمل زادا عدا العربات الاحتياطية وجيش الدوائر والزمالة[١٠٢] " واستطاع الأمير البطل بجيشه الذي لا يزيد عن ٢٠٠٠ فارس و١٠٠٠ من المشاة أن يلحق الهزائم المتوالية بجيش العدو فكانت معركة "سيق" وعاودها الأمير صولة ثانية وسيوف قومه لم ترد إلى أغمادها لتكون معركة "المقطع"[١٠٣] الشهيرة التي أحدثت هزة عنيفة في فرنسا ذاتها أدت إلى تغييرات كبيرة في الجيش، فاستدعي الجنرال " ديرلون" وحل الجنرال "دارلنج" محل الجينرال "تريزيل " المهزوم وعين المارشال "كلوزيل" مرة أخرى ليفتح عهدا جديدا[١٠٤].

وقد أسفرت هذه المعركة عن نتائج يمكن اجمالها فيمايلي .

إن هذه المعركة لقنت الجنرال تريزيل درسا قاسيا لن ينساه، شهد به في رسالته إلى الوالي العام بقوله: "قد أضعت هذه المعركة المهلكة واضعت آمالا كانت تبدو لي معقولة ولكنه كان لي من الضروري الحصول على النصر، وليس من شك في أني قد بالغت في تقدير قوتي، كما بالغت في عدم تقدير قوة العرب، ومهما يكن من شيء فإني

أرزح تحت ثقل المسؤولية التي أقدمت على تحملها وأنا على استعداد لتقبل اللوم دون أن أنبس ببنت شفة وكذلك كل إجراء صارم ترى حكومة الملك من الضروري إتخاذه في حقي" .[١٠٥]

إن هذه المعركة قد أفسدت أيضا على الوالي العام خطته التي كان يستعد لها ، والتي بموجبها سيوقع اتفاقية مع الأمير من موقف قوة فأفسد الجنرال تريزيل عليه ذلك .

أما النتيجة الأهم فهي انهيار معنويات الجيش الفرنسي وإدراكه لحقيقة ثابتة وهي أنه لن ينال من الأمير مهما قويت شوكته لأنه يحارب بلا مبدأ ولا هدف ، يحارب من أجل قضية خاسرة ، وإليك صورة من صور هذا الجيش المنهزم بعد إحدى معاركه كما وصفها بعض الكتاب الفرنسيين ." . . . . كذلك صار الجنود الفرنسيون من هول الحرب كما هلاميا لا نظام له يريدون الفرار ولا يستطيعون ، يدورون حول أنفسهم كالدوامة مشدوهين لاهثين كانما قد مسهم مس من الشيطان ، فمنهم رجال عراة عزل من السلاح يندفعون ضاحكين ملء أفواههم أمام العرب ، وآخرون أصابهم العمى يهومون في جداول لا يرونها ويسبحون في شبر من الماء ، وهناك غيرهم يبحثون على ركبهم ينشدون الأناشيد للشمس وقد سلطت عليهم لهيبها المحرق فأفقدهم صوابهم ، لقد فقد الجميع شعورهم بمواقعهم وبواجباتهم بل فقدوا حتى غريزة حب البقاء . . . رجال ينتحرون ، ورجال تأكلهم الحمى ، والقيادة صامتة . . . يصارعون الموت وليس معهم قوت يومهم ، ويتناحرون فيما بينهم للظفر بأحشاء الحيوانات النافقة"[١٠٦]

ومن أشهر المعارك أيضا التي أدارها الأمير القائد بقوة واقتدار كبيرين معركة "سيدي ابراهيم "التي سنعرض لها فيما بعد ، وهكذا لم يجد العدو أمام هذه الضربات الموجعة إلا أولئك الأهالي العزل من السلاح ليصب عليهم جام غضبه ولينتقم من الشيوخ والنساء والأطفال ، بعد أن أعيته الحيلة قي مواقع النزال فراح يتفنن في ابتكار وسائل القتل والتعذيب والتشريد ، وسياسة الأرض المحروقة ، لكن وعلى الرغم من ذلك لم يتخل

الشعب عن قائده، ولم يتوان مرة واحدة عن تلبية نداء الجهاد، فكان بعد كل مجزرة يتعرض لها يجدد العهد بدمائه على مواصلة المشوار والذود عن الشرف المداس.

و ما فتئ الأمير يسجل انتصاراته المتوالية ويلحق بفرنسا أفدح الخسائر، فهو معهم أينما ولوا، يأتيهم من حيث لا يحتسبون، يعكر عليهم صفو راحتهم، ويبعد ذكرى النوم عن أجفانهم، فحسبهم أن يذكر اسمه لتستنفر قوات فرنسا إلى أقصى حد، وبذلك تحطمت آمال العدو أمام صلابة صخرة المقاومة الشعبية الوطنية فلم تجد فرنسا بدا من مصالحة الأمير لتسترجع أنفاسها، وأوعزت إلى سفاحها الجنرال " بيجو " BUGEAUD أن يسعى لعقد معاهدة مع الأمير تبقي لفرنسا بعض ماء الوجه وتحافظ على شرفها إن بقي لها شرف يذكر.

و استمرت الاتصالات والمفاوضات بين الأمير والجنرال إلى أن كللت بتوقيع معاهدة تافنا TAFNA الشهيرة في السادس من ربيع الأول سنة ١٢٥٤هـ الموافق لأول حزيران ١٨٣٨ م والتي اشتملت على خمسة عشر بندا[١٠٧].

وقد أتاحت هذه المعاهدة للأمير أن يحقق مكاسب هامة تمثلت أساسا في الانصراف للاهتمام بشؤون دولته وتدعيم سلطانه على القبائل الخارجة عليه. كما اضفت هذه المعاهدة على إمارته صفة الدولة الرسمية باعتراف فرنسا الصريح بدولة الأمير وتبادل التمثيل الديبلوماسي معها.

وبعد التوقيع على هذه المعاهدة جرى لقاء بين الأمير وبيجو[١٠٨] بطلب هذا الأخير وتركت هذه المقابلة أثرا في نفس الجنرال الفرنسي عبر عنها بقوله: " . . . وقبل أن أدخل معه في الحديث أخذت أتأمل وجهه وكسوته لحظة، إنه شاحب اللون وصورته قوية الشبه بالصورة التقليدية المعروفة للمسيح وعيناه مثل لحيته كستنائية اللون، مظهره العام يدل على التقوى والخشوع[١٠٩] ".

وبعد أن أمنت فرنسا جانب الأمير، هاجمت قواتها قسنطينة فاحتلتها وتوسعت

لتستولي على جيجل وسطيف وغيرها من المناطق الشرقية" ولم يحرك الأمير ساكنا ولم يحاول أن ينجد قسنطينة ولو فعل ذلك لتطورت الأحداث تطورا آخر وكان سكوته وإحجامه عن نجدة قسنطينة سببا قويا لتفرغ الفرنسيين بعد ذلك لمحاربته بشكل أعنف وأخطر[١١٠] ."

وكعادة المستعمر – في عدم الوفاء بعهوده – سارعت فرنسا لنقض معاهدة تافنا بعد أن رأت الأمور تسير في غير صالحها، فهاهي دولة الأمير تقوى وتتعاظم، والسكوت عنها يعني زوال الحكم الفرنسي من البلاد، لذلك سارعت فرنسا لاختلاق الأسباب لتدفع الأمير إلى نقض المعاهدة، ولما خابت مساعيها لجأت إلى الاستفزاز عن طريق الاخلال ببعض شروط المعاهدة كتجاوزها الحدود المتفق عليها .

وعلى الرغم من أن الأمير كان واسع الصدر صبورا، ألا أن تصرفات فرنسا الاستفزازية أفقدته صبره ليبدأمعها فصلا جديدا من الجهاد المتواصل ونودي بالجهاد في ٢٠ نوفمبر ١٨٣٩[١١١]، واستمرت المعارك بدون هوادة ولا انقطاع ضرب فيها الأمير وأبطاله أروع الأمثلة في التضحية والشجاعة مما ألجأ فرنسا إلى انتهاج سياسة (فرق تسد) بين القبائل، كما اتبع الجنرال بيجو سياسة الأرض المحروقة مما نتج عنها استسلام بعض خلفاء الأمير بعد أن أخذت مظاهر الضعف والوهن تبدو عليهم، وهكذا توالت الهزات في جيش الأمير، وكانت المصيبة الكبرى بسقوط (الزمالة) عاصمته المتنقلة في ١٨٤٣ " حيث انسحب سلطان العرب متأثرا بجراحه أمام العدو الذي كان يلاحقه[١١٢].

لكن الأمير لم يستسلم، ولم ييأس قط حتى وهو في أشد حالات الإحباط والضعف ولم يفوت على نفسه اية فرصة لمناوشة عدوه، فكان يكر ويفر، يهاجم ويتراجع بما تبقى له من الفرسان، واستطاع رغم هذه الظروف القاسية أن يلحق بفرنسا هزيمة نكراء في معركة سيدي ابراهيم بتاريخ ٣٢ سبتمبر ١٨٤٥ التي انتصر فيها الامير انتصارا عظيما فكانت على الفرنسيين كارثة حيث أصيب فيها قائد القوات الفرنسية

مونتنياك MONTINIAC برصاصة في أسفل بطنه[١١٣] . ولنستمع إلى أحد الجنود الفرنسيين الذي نجا من الموت بأعجوبة في هذه الموقعة، فقد صرح في سبتمبر ١٨٩٢ أي بعد مضي ٤٧ سنة على المعركة بقوله: " كنت خلال خمسة عشر عاما بعد المعركة تتردد في أحلامي في كل ليلة بعض تفاصيل المعركة الرهيبة، وحتى اليوم لا تزال تفاصيل المعركة حية في ذهني كما لو شاهدتها أمس[١١٤] " وذلك لهول مارآه في هذا اليوم المشهود.

ولما سدت في وجه الامير السبل، ولم تبق امامه إلا الناحية الغربية المتاخمة للحدود المغربية اضطر إلى الالتجاء اليها، ليجمع قواته ويطلب العون، فاتصل بسلطان المغرب الذي لم يستجب لنداء الأخوة تحت تهديد فرنسا له باحتلال المغرب، وفعلا فقد ضربت فرنسا مدينتي (طنجة ومغادور) ببوارجها الحربية مما اضطر مولاي عبدالرحمان بن هاشم إلى عقد صلح مع فرنسا في ١٠ سبتمبر ١٨٤٤ بشروط مخزية[١١٥] أملاها عليه الجنرال بيجو " من بينها طرد الأمير من الأراضي المراكشية، والقبض عليه في أي فرصة تتاح من أجل سجنه أو قتله أو تسليمه[١١٦] . "

و هكذا عاد الأمير بما تبقى معه من جند إلى أرض الوطن سنة ١٨٤٥ بعد أن يئس من مساعدة سلطان المغرب ولسان حاله ينشد بتحسر ومرارة قول الشاعر طرفة بن العبد[١١٧]:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة

على المرء من وقع الحسام المهند

و في هذا الظرف العصيب الذي تمر به المقاومة الشعبية، ازدادت امدادات العدو ونجداته، وبدأت في محاصرة الأمير وملاحقته أينما ولى، مما اضطره إلى العودة ثانية إلى المغرب، وهنا لم يجد السلطان المغربي- وتحت التهديد الفرنسي - مفرا لتجهيز الجيوش المغربية لمحاربة اخوته في الدين، الفارين اليه فوجه جيشا ضخما تعداده

٥٠,٠٠٠ جندي أسند قيادته لابنيه الأمير أحمد ومحمد، وحصلت بين الجيشين الشقيقين – وبكل أسى وحسرة –" معركة طاحنة يوم ١٥ ديسمبر ١٨٤٧ على ضفاف نهر ملوية تكبد فيها المغاربة خسائر فادحة، وقتل للأمير أربعة أفراس كدليل على شدة وهول الموقعة، التي دخلها عبدالقادر مضطرا بعد أن كاتب علماء مصر بشأن موقف السلطان منه، فأفتوا بقتاله[١١٨] ."

وبعد انتهاء هذه المعركة انصرف " الأمير وقد أيقن بانتشار سلكه وذهاب ملكه[١١٩]، خاصة وأن الجنرال لامورسيال L AMORSIERE كان يتربص به غير بعيد من مكان المعركة وسد عليه جميع السبل، فعلم الأمير أن ساعة النهاية قد آنت، وأنه هالك لا محالة ومن برفقته من الجرحى والأرامل والأطفال " فجمع خاصته وذويه واستشارهم في الامر فكان ردهم جميعا: الرد لمولانا وسيدنا فالذي يراه نحن معه فيه"[١٢٠]، وتدارس القوم الموقف بمنتهى الحرية والشورى وأجمعوا رأيهم على أن يكون التسليم للفرنسيين . فبعث الأمير رسولا منه إلى الجنرال لامورسيال الذي لم يصدق الخبر واهتز لذلك فرحا وسرورا، فسارع بإرسال سيفه مع ورقة مختومة على بياض ليشترط الأمير ماشاء، وأرسل لتوه إلى الدوق دومان DAUMAN ابن ملك فرنسا حاكم الجزائر الذي سارع إلى الحضور ليشهد هذا الفصل التاريخي وأعطى للأمير ميثاقا غليظا ووعدا أكيدا بقبول كل شروطه، وتم الاتفاق على مايلي:

- أن يحملوه مع جميع عائلته إلى عكا أو الإسكندرية .
- أن لا يعترضوا لمن يريد السفر معه من الضباط والعساكر.
- أن الذي يبقى منهم في الوطن يكون آمنا على نفسه.

وهكذا، استسلم الأمير في ١٥ محرم ١٢٦٤هـ/ ٢٣ ديسمبر ١٨٤٧م[١٢١]، بعد أن صلى ركعتين بزاوية سيدي ابراهيم التي شهدت تلك المعركة الرهيبة بينه وبين فرنسا.

وبذلك طويت صفحة مجيدة من صفحات الجهاد المقدس الذي حمل لواءه الأمير

مدة سبعة عشر عاما وستة اشهر وثمانية أيام[١٢٢]، والذي بقي نبراسا اقتدت به الأجيال بعده، وغادر الأمير الجريح أرض الوطن ولسان حاله يردد بحسرة:

إن يسلب القوم العدا
ملكي . وتُسْلمني الجموعُ
فالقلب بين ضلوعه
لم تُسْلِم القلب الضلوع
أجلي تأخر.لم يكن
يهواه ذلي والخضوع
ما سرت - قط - إلى القتا
ل .وكان من أملي الرجوع
شيم الأولى، أنا منهم
والأصل تتَّبع الفروع

وقد حيرت هذه النهاية الحزينة لهذا البطل كثيرا من المؤرخين والدارسين وقد سماها بعضهم حيرة التاريخ، ذلك أنه إذا كان الأمير على هذا الحال من السيطرة والعظمة الإنسانية والفروسية الحقة، فلماذا كانت النتيجة عكس المأمول . . . وأي داع جعل الأمير يختم مصيره بالاستسلام ؟.

بينما ذهب البعض إلى حد اتهام الأمير بالخيانة دون مراعاة الظروف القاسية التي كان يعيشها عبدالقادر ومن معه بين فكي كماشة أحد طرفيها عدوه فرنسا، والآخر قريب تربطه بالأمير صلة الدم واللسان، وقد أحسن بول أزان PAU AZAN-وصف هذا الموقف بدقة في قوله: " كان الأمير محاصرا بسياج محكم، فهل يستطيع المرور عبر الثغرات في هذه المرة؟ . [١٢٣]

وكلا المتربصين ينتظر لحظة وقوع الفريسة للانقضاض عليها، فالأمير فقد أبطاله

ورجاله وهو يقارع الأعداء، وتخلى عنه قواده وخلفاؤه، وخانه ذوو القربى وأصبحت " زمالة" الأمير تعج بأرامل الشهداء وأطفالهم وهي أمانة في عنق القائد عبدالقادر، أيستسلم ليوفر لهم عيش كريما وشرفا مصانا أم يغامر وهو يدرك جيدا أن مثل هذا التصرف ماهو إلا تهور سيؤدي حتما إلى كارثة ونهاية أشد قتامة وسوادا . وهو ما وعاه الأمير وتدبره مؤمنا بأنه أمام اختيارين لا ثالث لهما أحلاهما مر، فإما أن يستسلم وبشروط مشرفة، أو ينتحر ومن معه فاختار الأول.

فإذا لم يكن في الاستسلام بطولة فبدون شك فإن الإنتحار ليس موقفا بطوليا أيضا، ولنعد إلى التاريخ نتصفحه فسنجد أن هناك رجالا عظماء لهم منزلتهم التاريخية الكبرى في الحرب مثل" حنبعل " الذي استسلم لروما "ونابليون الأول" الذي استسلم لبريطانيا، «ولم نجد من المؤرخين من اتهم حنبعل أو نابليون بالخيانة وعلى هذا الأساس يظل الأمير الذي دخل التاريخ من أوسع أبوابه بطلا عظيما رغم هذا الاستسلام»[١٢٤] .

١٠ - الأمير الأسير:

غادر الأمير أرض الوطن التي أفنى في سبيلها زهرة شبابه، ووهبها روحه ونفسه وقلبه ينفطر حسرة وألما، راضيا بقضاء الله وقدره، ساخرا من هذا الزمن الذي لا يبقي على حدثانه، هو وأتباعه الثمانون في ١٧ من محرم ١٢٦٤ هـ الموافق لـ ٢٥ من ديسمبر ١٨٤٧ على متن السفينة أسمودس ASMODEUS حيث توجهت بهم تمخر عباب البحر المتوسط إلى ميناء طولون TAULON الحربي في ٢٤ محرم ١٢٦٤هـ -١ يناير ١٨٤٨ م، وسيق الأمير ورفاقه إلى قلعة لامالق LA MALAGUEوهناك أحس أميرنا أنه خدع، وأن فرنسا قد أخلت بوعدها، وأن الأيام القادمة ستتمخض أحداثا لا يعلم أمرها إلا الله، وأيقن القائد الأسير أن لا ملاذ له إلا الصبر والتجلد، فستبدأ فصول مسرحية جديدة طبختها فرنسا لإثنائه عما قرره في نفسه من الانتقال إلى المشرق. وصدق حدس الأمير بحيث لم يكد يمر اليوم التالي حتى تقدمت الحكومة الفرنسية

بعرض سخي تمثل في – مكانة مرموقة في فرنسا : قصر ملكي وحرس شرفي وكل الأبهة والحاشية الجديرة بأمير" مقابل أن يتنازل عن شرط ترحيله إلى " عكا" أو «الاسكندرية» فكان جواب الأمير فاصلا وحاسما : " إني لا أقبل هذا ولو فرشت لي سهول فرنسا ومسالكها بالديباج ، وها أنا بين أيديكم فافعلوا ما بدا لكم ، ولا يمكن أن أترك طلب الوفاء بالعهد مادمت حيا[١٢٥] " ولما خابت فرنسا في مسعاها المغري ، عرضت على الأمير التوجه إلى باريس أسوة بابراهيم باشا خديوي مصر ، عسى أن يغير من رأيه وهو يرى عاصمة النور والحرية ، ولكن عبدالقادر أفحم أعداءه بقولة تنم عن إباء وكرامة إذ قال لمحدثه وهو يحاوره : " إن ابراهيم باشا يرى باريس وغيرها من أمصار فرنسا منتزها له يمرح فيه كيفما شاء ، واما أنا فلا أرى فرنسا الآن إلا سجنا لي ولمن معي ، فلا فرق عندي بين طولون وباريس"[١٢٦] .

وهكذا وجدت فرنسا نفسها أمام رجل عظيم لا يبيع أقواله ومبادئه بزخرف الدنيا ومتاعها ، فالرجل بطل حرب وبطل كلمة ، وأيقنت أن لا سبيل مع الأمير المصمم على أمره ، فتركته أسيرا لعل الأيام والأسر يتكفلان باحباط عزيمته ، ويثنيه عن اصراره وصموده . ولكن هيهات فالذي صبر على المكاره لعشر وأردفها بسبع ولم ييأس وهو في أشد حالات الإحباط والضعف ، لم يكن أن يخضع لمثل هذه الإغراءات المادية التي لا تخدع أميرا فارسا مثل الأمير عبدالقادر .

وتمر الأيام وهو يصبر ويصابر ، ويشجع أهله ورفاقه يمنيهم بقرب الفرج بإيمان قوى وعزيمة جبارة لا تعرفان اليأس ، حتى كانت الثورة الفرنسية التي أطاحت بالملكية وأعلنت الجمهورية سنة ١٨٤٨ " والتي طلب زعماؤها من أسيرهم أن يكتب لهم تعهدا بالأصالة عن نفسه وأتباعه ، بعدم العودة إلى الجزائر فكان لهم ماأردوا[١٢٧] ، وبعد انتظار طويل وصله الرد مخيبا للآمال ، هذا نصه : " إن الجمهورية لا ترى نفسها مقيدة بأي التزام لعبد القادر وإنها تعتبره كما تركته الحكومة الفرنسية أسيرا "[١٢٨] .

وكان الرد صدمة قوية للأمير تحملها بجلد، وعلم أنه أمام عدو لا يعرف للكلمة قدرا، ولا للشرف وزنا، ولا للعهود والمواثيق اعتبارا، لذلك فقد شعر أنه سيكون أسيرا مدى الحياة وأسلم أمره للقدر يفعل به مايشاء، ووضع رقابة ذاتية تضبط عواطفه التي كانت حتى الآن ثائرة، وعادت عظمة نفسه إلى سموها المعتاد[١٢٩] ."

ولم يلبث الامير طويلا في أسره "بطولون" حتى نقل ومرافقوه إلى سراية بو "PAU عند الحدود الفرنسية الإسبانية وظل الأمير الأسير متنقلا بين السجون الفرنسية فمن طولون إلى بو إلى بوردو- BAURDAU ومنها إلى نانت- NANTEليستقر به المقام الأخير في قلعة أمبواز - AMBOISE والحكومة الفرنسية لم تفتأ تراوده وتغريه بالوعود ليتنازل عن حقه في الذهاب إلى المشرق، لكن القائد الأمير ظل كما عهدناه رافضا كل المغريات، فإما أن يطلق سراحه، أو يقضى نحبه ويكون في ذلك العار لفرنسا للأبد، ولنستمع إليه وهو يؤكد هذه الحقيقة الثابتة " لو جمعت فرنسا سائر أموالها، ثم خيرتني بين أخذها وأكون عبدا، وبين أن أكون حرا فقيرا، لاخترت أن أكون حرا فقيرا، فلا تراجعوني بمثل ذلك الخطاب فإنه ليس عندي بعد هذا الخطاب جواب، وإلى الله ترجع الأمور"[١٣٠] .

تألم الأمير عبدالقادر وسلم أمره لقضاء الله فالأسر سيطول، ولذلك فعليه أن يفكر في أمر يشغل به هذا الفراغ الرهيب، فانطلق بنفس مؤمنة قوية " يتفرغ لمااختار من الموضوعات العلمية من قبل في قلعة أمبواز فحولها إلى خلية نحل للدراسة وداوم مدة خمس سنوات على التدريس والإفاضة والبيان والتثبت لإفادة خاصته البالغين نحو ثمانين فردا وهكذا وجد الأمير عزاءه بين الكتب والعلوم والعبادة، ووضع لنفسه وأتباعه نظاما زمنيا صارما، فأوقاته مضبوطة بدقة وموزعة على هذه الأمور، وبذلك لم يشعر بثقل أيام الأسر اللعينة،" واستطاع عبدالقادر أن يقرأ السنوسية في التوحيد مثلما كان قد قرأها أثناء الاشتغال بالمعارك الحربية . . . وقرأ على أصحابه أكثر مدونات الفقه المالكي شهرة بالمغرب عامة وتلمسان خاصة، وهي رسالة الإمام ابن أبي

زيد القيرواني وغيرهما[١٣١]، كما قرأ الأمير على رفاقه صحيح البخاري وكتاب الشفاء للإمام عياض[١٣٢] ".

وإلى جانب التدريس وحلقات العلم، والقيام بأمر العبادة استطاع الأمير أن يؤلف في هذه الفترة العصيبة في سجنه كتابه " المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد"وقد اعتبر هذا المؤلف أشبه ما يكون "بالمنشور السري الثوري ضد ديكتاتورية فليب الثاني هذا الذى حظر على الناس البوح بآرائهم ولم يعطي حق التصويت إلا لأقل من واحد بالمائة[١٣٣] ".

وأيقنت فرنسا أنها أمام رجل عظيم حقا لا يلين له عضد، ولا تجدي معه الدسائس والمؤامرات فانقلب كيدها إلى نحرها، فعبد القادر كما عهدته من قبل، بل أقوى وأشد بأسا، لقد عرفته رجل حرب جرعها مرارة الهزيمة مرارا في الجزائر لتفاجأ به رجل قلم وفكر في فرنسا ذاتها، فيالسخرية القدر.

وعن طريق هذه النافذة الثقافية دلف إليه العلماء في منفاه في فرنسا وطلاب المعرفة وكثرت محاوراته ومراسلاته واستطاع الأمير بذلك أن يسبق غيره بفتح عصر المناظرات والمجادلات العلمية بين المسلمين وأهل الديانات الأخرى، بعد أن أغلقت أو كادت أن تنتهي مع نهاية الحروب الصليبية " وقبل أن تنشب بعشرات السنين، في عنفوان عصور الاستعمار بين " الأفغاني ورينان " وبين " محمد عبدو ولوبون ودي هانوتو وبريليتو" ثم بين قاسم أمين وداركور[١٣٤] "

وإلى جانب هذه المحاورات نظم الأمير كثيرا من قصائده الشعرية التي جادت بها نفسه الأسيرة في معتقله بأمبواز، وخاصة قصائده في الشكوى والحنين للأهالي إلى جانب بعض المقطوعات أو المساجلات الشعرية في سبيل التفكه والشكر وأشهرها تلك التي كانت بينه وبين الشيخ الصوفي محمد الشاذلي القسنطيني[١٣٥].

وعلى هذا النمط سارت حياة الأمير الأسير بأيامها ولياليها، وعبد القادر لم يزل

المقاتل العنيد" وكلما حدث من أمره هو أنه استبدل سلاحا بسلاح ولاقى كل موقف بما يناسبه من السلوك، وانتقل من سطوة الإمارة بالجزائر إلى ظلم السجن ووحشته وهو على حاله من طلب العلم وإيتائه بكل وسيلة، وأصبح العالم المتفرغ للعلم بعد أن كان العالم المشتغل بالحكم"[١٣٦].

وتوالت الأيام والليالي حتى كان الـ ٢ من محرم ١٢٦٩ هـ / ١٧ اكتوبر ١٨٥٢ حين زار البرينس لويس نابليون- LOUIS NAPOLION الأمير في سجنه وعلى الرغم من العراقيل والصعوبات التي وضعت أمام هذه الخطوة بغرض عدم اتمام الزيارة، ولكن نابليون كان مصمما" فضرورة انقاذ الشرف القومي، الذي طال تلطيخه بإخلاف الوعد سيطرت على عقله فوق جميع الاعتبارات الأخرى[١٣٧] ".

وخلال هذه الزيارة أثنى نابليون على الأمير ومدح فيه خصائل الصبر والتجلد التي أبداها خلال فترة أسره بإطلاق سراحه مشترطا عليه إلا يفكر مطلقا في العودة إلى الجزائر فكان لنابليون ما أراد، ودعي الأمير إلى باريس فدخلها في ١٤ محرم ١٢٦٩ هـ/ ٢٨ اكتوبر ١٨٥٢ م، وقد أقيم له استقبال رسمي حار وفيه قدم الأمير تعهده بالكتابة بعدم العودة أبدا إلى الجزائر ومما جاء فيه مايلي:

" . . . إنني جئت لأقسم لك بالله العظيم وبكل الأنبياء والرسل أن لا أفعل شيئا يتنافى مع الثقة التي وضعتها في، وعلي أن التزم بهذا القسم التزاما دينيا بأني لا أعود أبدا للجزائر، فعندما أمرني الاله بالنهوض نهضت، وقد استعملت البارود إلى أقصى حد مكنتني منه وسائلي وطاقتي، ولكن عندما أمرني بالتوقف توقفت، وعند ذلك، تخليت عن السلطة واستسلمت"[١٣٨].

وبعد أن قام الأمير بجولات مختلفة في فرنسا غادرها مكرما معززا في الفاتح من ربيع الأول ١٢٦٩هـ/ ١٣ ديسمبر ١٨٥٢ على ظهر السفينة لابرادو قاصدا الشرق[١٣٩].

١١ - الأمير في الشرق:

وصل الأمير الأستانة عن طريق صقلية فدخلها يوم الجمعة ٢٨ ربيع الأول ١٢٦٩ هـ / ٨ يناير ١٨٥٣م [١٤٠] وفور وصوله توجه لزيارة ضريح الصحابي الجليل أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري (رضي الله عنه) عند سور القسطنطينية، ولما فرغ منها توجه إلى جامع صوفيا، فزاره وقابل الصدر الأعظم المرحوم مصطفى رشيد باشا الذي أكرمه وأحسن استقباله .

وفي يومه الثالث دعي لمقابلة السلطان عبدالمجيد الأول الذي رحب بالأمير شاكرا أفعاله وخصاله في الذود عن حياض الدين والوطن، وامتدحه الأمير بقصيدة طويلة عدد فيها مناقب ومفاخر آل عثمان وحرصهم على الدفاع على الإسلام وسعيهم للحفاظ على عزته وقوته داعيا له بالنصر [١٤١].

انقضت عشرة أيام في الآستانة، كانت حافلة بالزيارات تبادل فيها التحيات والأشعار ليغادرها عبدالقادر إلى بروسة حيث استقبله خليل باشا صهر السلطان بغاية التبجيل وأنزله منزلا كريما، ولما نظر الأمير إلى موقع المدينة ألفاها شبيهة بمدينة تلمسان، فجاشت كوامن الشعر وأنشد[١٤٢]:

أما الخيام فإنها كخيامهم

وأرى نساء الحي غير نسائها

واستقر عبدالقادر بهذه المدينة ينعم بالهدوء والدعة، يحظى بكل تقدير وتبجيل واحترام من العام والخاص معتكفا على القراءة والتدريس، وكانت صلواته الخمس في الجامع القريب من سكناه المعروف بجامع العرب، حيث كان يلقى فيه الدروس فدرس فيه " ألفية ابن مالك بشرح المكودي والسنوسية بشرح المصنف والإبريز في مناقب سيدي عبدالعزيز"[١٤٣] كما ألف في هذه الفترة من إقامته ببروسة " ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" .

ومع أن الأمير كان في أرض إسلامية وبين إخوانه في الدين، إلا أنه كان دائم الإحساس بالغربة والحنين إلى وطنه الجزائر، ولعل مرد ذلك كما يذكر تشرشل: " إلى أنه لم يكن بينه وبين الأتراك عاطفة ممكنة ولا يمكن أن تكون أبدا، فعلماؤهم كانوا يحسدونه ويكرهونه لعلمه الغزير، وكانت طبقة الأفندية منهم في فخرها المتشامخ قلما تتنازل لتلاحظه[١٤٤] ".

غادر الأمير بروسة وولى وجهته شطر دمشق الفيحاء عاصمة بني أمية . ينشد الراحة والاستقرار اللذين افتقدهما في بروسة خاصة بعد الزلزال العنيف الذي هز هذه الأخيرة ١٨٥٥م .

وصدرت الأوامر إلى والي دمشق بأن يعد أحسن استقبال لعبد القادر وأن يهيىء له كل الشروط الملائمة لاستقراره في دمشق، وفور وصول الأمير إليها توجه " إلى ضريح العارف بالله الشيخ الأكبر والكبير الأحمر سيدي محيي الدين بن عربي رضي الله عنه، وبعد أن زاره وتبرك به توجه إلى المحل المعد لنزوله بدار عزت باشا الرئيسي.

وكما كان الامير محور اهتمام العلماء والفقهاء، وكبار القوم، أنى حل، فقد وجد نفسه أيضا في دمشق محط الانظار، فشهرته قد سبقته إلى هناك وتهافت القوم زرافات ووحدانا لرؤيته والتشرف بملاقاته، ملاقاة رجل حاز من المجد مالم ينله إلا القليل النادر، أليست تشفع له ألقابه الثلاث لترفعه مكانا عاليا في عيون الناس، فكونه شريفا من نسب خاتم الأنبياء والمرسلين، وعالما وأديبا فقيها، ومجاهدا بطلا قاتل في سبيل الله بماله وروحه ابتغاء مرضاته، أفنى زهرة عمره في مواقع النزال بين قعقعة السلاح وسنابك الخيل، طلب الموت فوهبت له الحياة، فإذا ما قال رجل عظيم كفولتير: " ماعلي إذا لم يكن لي صولجان أليس لي قلم؟ فإن ميزة الأمير أنه كان له صولجان وكان له قلم[١٤٥] ".

وهكذا عرف الأمير في دمشق، مما دفع القوم إلى مطالبته بالعودة إلى التدريس

فلبى رغبتهم بكل امتنان " وتكونت حلقة درس ديني مؤلفة من نيف وستين طالبا وكانت تجتمع يوميا في الجامع الكبير، وكان الأمير يرأسها ولا يتخلف عن حضورها[١٤٦] " وقد كان القرآن الكريم والحديث الشريف أساسا الدروس والمناقشات ولكن خلافا للمعلمين العاديين الذين لاتمتد قواهم العقلية إلى أكثر من ملاحظات وتعاليق عتيقة بالية عن الكتب المقدسة، فإن عبدالقادر قد أثار استغراب أتباعه وأثلج صدورهم باختياره للنصوص من أعمال أفلاطون وارسطو وأحيانا حتى من مؤلفين في درجة أدنى من هذين سمعة[١٤٧] " كما قرأ على طلابه في دمشق "كتاب الإبريز لابن مبارك والشفا للقاضي عياض، ويبدو أن الحاجة مازالت ملحة على صحة الاعتقاد في التوحيد لمواجهة صعاب متشابهة فأعاد أيضا إقراء الجلوس حوله " العقائد النفيسة" ونحوها وكذلك صحيح مسلم وجلس مجالس عامة، وأخرى خاصة للتدريس[١٤٨] " .

ولحرص الأمير على العلم ونشره" فإنه اشترى في دمشق داراً خصصها له وسماها دار الحديث[١٤٩] . "

وأصبح الأمير العالم، كالنحلة يتنقل من روضة إلى أخرى ومن جامع إلى آخر يشرح ويبين ويعلق، " فتارة في مدرسة الجمقمقية، وأخرى في المشهد الحسيني والمشهد السفرجلاني، وثالثة بالجامع الأموي، وبعد رجوعه من رحلة الحجاز جعل التدريس في منزل الضيوف من داره[١٥٠] . "

ومع إطلالة شهر رمضان المبارك كان الأمير يعتكف بالجامع الأموي يشمر عن ساعد العمل، فتراه الناسك المتعبد الزاهد، والعالم الفقيه الحجة يبحث وينقب ليفيد ويستفيد، ومن شدة حرصه على الأمانة العلمية كان يتحراها من مصادرها وأصولها الأولى، وكثير ما شغلته التحقيقات العلمية للكتب فنراه مثلا يرسل " من دمشق إلى قونية عالمين من جلساء مجلسه هما الشيخ طنطاوي وتلميذه الشيخ محمد الطيب لمقابلة مخطوطه الخاص للفتوحات المكية لابن عربي على النسخة التي توجد بخط المؤلف

هناك ، وكان ذلك عام ١٢٨٨هـ أي قبل وفاته باثنتي عشرة سنة فقط"[١٥١] .

وفي هذه الفترة من إقامته بدمشق استطاع عبدالقادر أن يؤلف موسوعته الجامعة " كتاب المواقف " " أقدم فيها على تناول القضايا العويصة في تاريخ الفكر الإسلامي وبث فيها أراءه الإصلاحية بثا ثبتا دقيقا آملا متفائلا بتحقيق رجائه الودود المنشود في الإصلاح"[١٥٢] وكان تأليف هذا المؤلف الضخم حصيلة لثقافة الأمير الصوفية كما جاء استجابة لطلب بعض العلماء الذين التمسوا في الأمير أن يدون لهم ما يلقيه في دروسه وما يتكلم به في مجالسه .

١٢ - موقفه من أحداث الشام الطائفية:

عاش الأمير حياته الهادئة المشبعة علما وتدريسا وعبادة في دمشق الفيحاء بكل أمن وراحة يرعى أبناءه ، ويمد يد العون والمساعدة لكل محتاج ، ولم يكدر صفو هذه الحياة الهانئة سوى أحداث الفتنة الطائفية الكبرى التي وقعت بين الدروز والموارنة بعد أربع سنوات من استقرار الأمير بدمشق .

وللحقيقة ، فإن مثل هذه الاضطرابات كانت تحدث بين الحين والآخر بين شتى الطوائف في الشام ، ولكن هذه الفتنة كانت عامة وخطيرة حتى بلغت درجة تكاد توصف بالحرب .

ويكاد يتفق كتاب ومؤرخو هذه الأحداث على أن الأقدار لعبت دورا هاما في حماية مسيحيي الشام عن طريق الموقف الإسلامي النبيل الذي وقفه الأمير بكل بطولة وشهامة لحماية هؤلاء النصارى .

انطلقت شرارة هذه الفتنة بدمشق " يوم الإثنين ١٢ ذي الحجة عام ١٢٧٦ هـ الموافق لـ ١٠يوليو ١٨٦٠م أشعل فتيلها طفل صغير ، فامتد لهيبها لتصبح مذبحة كبرى ، أودت بحياة الكثير من الناس وعلى الرغم مما أجراه الأمير من اتصالات مع الوالي التركي "أحمد باشا" وما بذله من مجهودات جبارة لاحتواء الفتنة مع اندلاعها الا

أن مساعيه لم تجد آذانا ذاك صاغية ذلك " أن الوالي تصامم ولم يحرك ساكنا لأنه كان يجهل ما كان يجري في الأحياء بين الجماعات من أحاديث تنم عن العداء للنصارى الذين اضطهدوا المسلمين في جبل لبنان"[١٥٣] .

ولم يترك الأمير باباً إلا ولجه ، فاجتمع بأعيان ووجهاء دمشق مخاطبا إياهم : " إن الأديان وفي مقدمتها الدين الإسلامي أجل وأقدس من أن يكون خنجر جهالة ، أو معول طيش أو صرخات نذالة ، تدوي بها أفواه الحثالة من القوم . . . أحذركم من أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيبا ، وأن يكون له على نفوسكم سبيل[١٥٤] " ، لكن جهوده لإيقاف نزيف هذه المذبحة لم يكتب لها النجاة فتظافرت عوامل كثيرة على إذكاء نار العداوة حتى وقعت الكارثة فعلق الأمير عليها بكل حسرة ، قائلا : " هذا ما كنا نحاذره ونحذر الناس منه قد وقع ، إنا لله وإنا إليه راجعون[١٥٥] . " وهب الأمير مع أول نذير لهذه المذبحة يجمع الرجال المغاربة ويرسلهم إلى الأحياء المسيحية لرد المهاجمين ودعوتهم إلى التعقل والتريث وفتح بيته للفارين من النصارى ، بل إنه أمر جيرانه الأقربين" أن يخلوا منازلهم لتوفير المأوى لهؤلاء الفارين المنكوبين[١٥٦] " واستمرت هذه الفتنة قائمة ونارها مشتعلة أربعة عشر يوما ، كل ذلك والأمير مشتغل بأخذ الوسائل ليتوصل إلى إخمادها باذلا جهده ومساعيه ، ولم يدخل بيته في أيامها ، بل كان يجلس على سجادة في دهليزه ولا يهجع من الليل إلا قليلا .

وتوجت هذه المجهودات الإنسانية بنتائج باهرة دعت الجميع من المسلمين والنصارى إلى إكباره والإعجاب بنبل أخلاقه وعلو نفسه وبقدر ماكانت النتائج كانت التضحيات حيث دفع عدد من الجزائريين أرواحهم ، وكان من بينهم رفقاء الأمير في جهاده .

ومع انتهاء فصول هذه المأساة استطاع الأمير ومعاونوه أن ينقذ " خمسة عشر ألف نسمة ينتمون إلى الكنيسة الشرقية من الموت ، بل مما هو أسوأ من الموت ، بشجاعته النادرة ونشاطه الذي لا يكل وحماسه المتحرر[١٥٧] " .

وهكذا أتيح للأمير أن يثبت لأولئك الذين شكوا يوما في شهامته أنه انسان وعظيم يقدر المواقف ولا يحمل في صدره غلا ولا حقدا ويكفيه شرفا " أن كل ممثلي الدول المسيحية الذين كانوا يقيمون عندئذ في دمشق مدينون بدون استثناء لعبد القادر بحياتهم. إنه لقدر فريد وغريب من نوعه أن عربيا قد وضع درعه الواقي فوق كرامة أوربا الجريحة، وأن حفيد النبي قد وقى وحمى قريبه اوربا المسيح"[١٥٨] . وبذلك أضاف الأمير وساما آخر على صدره بموقفه الإنساني الذي أملاه عليه دينه وإيمانه وأخلاقه، حيث يؤكد ذلك بقوله في إحدى ردوده على رسائل الشكر التي وردت إليه: " والذي بلغكم عنا ورضيتم به منا من حماية أهل الذمة والعهد والذب عن أنفسهم وأعراضهم بقدر الطاقة والجهد هو - كما في كريم علمكم- مقتضى أوامر الشريعة السنية والمروءة الإنسانية، فإن شريعتنا متممة لمكارم الأخلاق فهي مشتملة على جميع المحامد الموجبة لاتلاف اشتمال الأتواق على الأعناق والبغي في كل الملل مذموم ومرتعه وخيم مرتكبه، ولكن:

يُقضَى على المرء في أيام محنته

حتى يرى حَسَناً ما ليس بالحسن[١٥٩]

وتقديرا من الجميع لهذا الموقف النبيل، انهالت على الأمير رسائل الشكر والامتنان من كافة الأنحاء مصحوبة " بالنياشين وشارات الفخر والتقدير من جميع ملوك ورؤساء الدول ونوهت به كبريات الصحف العالمية وأشادت بخصاله الكريمة ومواقفه الإنسانية[١٦٠] ومما جاء في إحدى الصحف مقولة أوردها محمد بن عبدالقادر في مؤلفه حيث ذكرت هذه الصحيفة " أنه يوجد في ذات عبدالقادر أمران: أحدهما أمير الجزائر والعدو المخيف للفرنسيين من ١٨٣٠ ١٨٤٧، والثانى الأمير الآن في سوريا، المخلص لألوف من النفوس في حادثة دمشق المهولة سنة ١٨٦٠م فالأمير هو الرجل الوحيد الذي ظهر في مكانين بعيدين بصورتين مختلفتين، وأمسى الفرنسيون مدينين له بدين هم مجبرون على أدائه له . الأمير عبدالقادر هو ذلك الرجل الباسل

الذي أبدى أموراً وأعمالاً لم يكن أحد يتصورها، ولذلك كانت جديرة بأن تدون في أجمل تواريخ العالم وآخر مانقول: إن عدونا القديم في الجزائر قد جعله الله الآن سببا لإنقاذ المسيحيين في الشام"[١٦١].

وبعد أن هدأت الأحوال وخمدت العاصفة وعاد الأمن والاستقرار إلى الناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم بعد تلك الحوادث المؤسفة، قرر الأمير أن يزور حماه وحمص، تدفعه في ذلك رغبة ملحة" فقد كان متعطشا لزيارة السيدين الجليلين سيف الله خالد بن الوليد وخامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنهما[١٦٢].

بعدها تاقت نفس عبدالقادروتحركت كوامن الشوق والحنين في نفسه لزيارة البلد الحرام ومهبط الوحي والرسالة، والتشرف بالوقوف بين يدي الرسول الأعظم(ص) فركب إلى الإسكندرية، ومنها إلى قاهرة المعز التي أقام بها فترة واغتنم الفرصة لزيارة بعض معالمها وعلمائها، وكان محل ترحيب وإكرام من قناصل الدول ووجهاء الشعب المصري وأعيانه، ومنها إلى السويس حيث أبحر إلى جدة .

وفور وصوله إلى مكة استقبله العلماء والفقهاء والأدباء الذين جعلوا من هذا المكان الأمين – محل إقامتهم الدائم – بما يليق برجل كعبد القادر من الاحترام والحفاوة والمودة، فكثر زواره، فأفرد العشر الأوائل من وصوله إلى مكة لاستقبال زواره، ثم طلب أن يترك على انفراد وانعزل عن الناس منغلقا على نفسه معتكفا في حجرته لا يبارحها إلا للذهاب إلى المسجد، وكرس كل وقته للدراسات الدينية والعبادة" واختار الشيخ محمد الفاسي المجاور في مكة أستاذاً له يأخذ عليه الطريقة "وحصل له في مكة فضل عظيم، وفتح نوراني أشار إليهما في قصيدته الصوفية التي امتدح بها شيخه الفاسي والتي يقول في مطلعها: [١٦٣]

أمسعود جاء السعد والخير واليسر

وولت جيوش النحس ليس لها ذكر

وبعد أن أتم الحج تاقت نفسه للراحة فتوجه إلى مدينة الطائف ذات الموقع الجميل ومكث بها ثلاثة اشهر ومنها إلى جدة، حيث أبحر إلى ميناء" الرانس " فاستقبله حاكم المدينة وشيخ الحرم النبوي وارتحلوا جميعا إلى يثرب ومكث الأمير بجوار الرسول يتعبد ويصوم" مدمنا على أداء وظيفة أوراده في الخلوة والجلوة، لم يلحقه من ذلك فتور[١٦٤] . وداوم على زيارة قبور الصحابة وشهداء العقيدة في أحد والصلاة في مسجد قباء.

وقد دامت هذه الرحلة الدينية المباركة سنة ونصف، ليعود بعدها الأمير إلى دمشق مارا بمصر، حيث حظي بمقابلة الخديوي اسماعيل باشا، ومنها إلى الإسكندرية، فبيروت ثم دمشق.

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى قضية هامة وحساسة في حياة الأمير عبدالقادر لاختلاف الآراء وتباين الاقوال فيها والمتعلقة بانضمامه إلى الجمعية الماسونية فنشير بادئ ذي بدء أن ابنه في تحفة الزائر لم يتطرق إطلاقا لهذا الجانب على الرغم من أن المؤلف لم يترك صغيرة ولا كبيرة في حياة والده إلا أحصاها وذكرها بتفاصيلها، ولا ندري هل كان هذا اهمالا متعمدا منه، " وماهي مصلحته في اخفاء أمر قد يكون والده قام به – كما يدعي بعض المؤرخين – جهارا أو يستحيل أن يخفى عليه[١٦٥].

أما تشرشل مؤلف" حياة الأمير عبدالقادر " فيذكر بصريح العبارة ما نصه" . . . . ومن جهة أخرى أصبح يحمل شعار جمعية تقوم على مبدأ الأخوة العالمية إن الجمعية الماسونية في الإسكندرية قد سارعت بالترحيب بالعضو الجديد الشهير فقد دعي المحفل الماسوني المعروف" بمحفل الأهرام" للاجتماع خصيصا لهذه المناسبة عشية ١٨ من يوليو، وأدخل عبدالقادر في هذا النظام الصوفي الغامض، وقد أضيفت لميزة " مجاور النبي " ميزة " ماسوني حر ومقبول" وهي العبارة العرفية المستعملة في هذا المقام" وقد كان اسمه الرمزي بعد انضمامه هنري الرابع.[١٦٦] .

وبقيت هذه النقطة محل أخذ ورد بين المؤرخين إلى أن نشر محمد بن سعيد حفيد

الأمير عبدالقادر مقالا بعنوان " الأمير عبدالقادر والجمعية الماسونية" وفيه رد حاسم وأدلة تنفي انضمام الأمير إلى هذه الجمعية ويطلب من يدعي ذلك أن يأتي ببراهينه يقول: " وعلى كل من يدعي انضمام الأمير بها، أن يبرز هذه الوثائق الراهنة مطبوعة نسخها على الحجر، ومامن أحد يجهل خط الامير وإمضائه[١٦٧] .

وسواء انضم الأمير عبدالقادر إلى هذه الجمعية أم لا، فمن المحتمل أن" حركة الماسونية في بدايتها كانت حركة أممية للنخبة، ذات أبعاد إنسانية وتدعو إلى التفاهم بين الشعوب، والتسامح، ونشر الثقافة والعلم، ومقاومة النزاعات العدوانية للحرب، بحيث أدت هذه الأفكار إلى انخراط كثير من المفكرين والزعماء العالميين، ومن بينهم محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني"[١٦٨] .

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن الأمير لو انضم حقيقة إلى هذه الجمعية فلمبادئها السالفة الذكر، وتبقى هذه النقطة محل شك قابلة للتصديق كما أنها قابلة للنفي حتى يفصل في هذا الأمر .

استقر الأمير بدمشق ما شاء له بعد عودته من رحلته الحجازية، وفي ٢٧ ذي القعدة ١٢٨٢ هـ/ ١٠ أبريل ١٨٦٥ م قام بزيارة بيروت فالآستانة " حيث أكرمت الدولة العلية نزله، وأظهرت من الاحتفال به أكمله، ومن الإكرام أجزله[١٦٩] "، وقابل السلطان العثماني عبدالعزيز، وانتهز الفرصة فعرض على الخليفة العثماني " شفاعته في أعيان دمشق الذين حكم عليهم الديوان العرفي بالنفي إثر فتنة دمشق ونفوا إلى قبرص ورودوس فلبى السلطان رجاءه وأصدر" إرادة سنية" بإطلاق هؤلاء الأعيان واعادتهم إلى بلادهم"[١٧٠] .

ومكث عبدالقادر في الآستانة شهرين، ثم بارحها إلى فرنسا فزار مرسيليا وليون وباريس، واستقبل استقبالا عظيما فسبحان مغير الأحوال ومن فرنسا توجه إلى لندن" حيث استقبله وزير الخارجية في جماعة من الأعيان بالإعزار والإعظام نيابة عن الملكة

وولي العهد، وبعدما أقام بها أياما رجع إلى باريس ثانية حيث أمر الإمبراطور نابليون بزيادة المنحة المخصصة له، ومنها إلى دمشق.

وكان مهرجان افتتاح قناة السويس فرصة للأمير ليزور ثانية أرض الكنانة حيث لبى الدعوة التي وجهت إليه ليحضر هذا الحدث التاريخي الهام بجانب الملوك والوزراء والاعيان، وهي شهادة على ماكان يتمتع به عبدالقادر آنذاك من تقدير واحترام " وقد أجمعت الروايات والصور والرسوم على أن عبدالقادر لم يشارك الحاضرين صخبهم وتبذلهم، فقد حبسه الوقار والاستنكار عن مجاراتهم وانصرف إلى التنزه في تلك المناطق التي كانت قد أعجبته من قبل[١٧١].

وفور انتهاء مراسيم الاحتفال عاد الأمير إلى دمشق وحدث أمر طريف، حيث أشيع نبأ وفاته، فانتشر الخبر في سائر الأماكن وانهالت رسائل التعازي على أسرته، ولما علم بذلك قال: " إن الموت لابد منه عند نهاية الأجل، والحمد لله الذي أراني وأسمعني مايقال في جانبي من الخير بعدي، وهذا نادر الوقوع وغريب الاتفاق[١٧٢] " .

١٣ - وفاته:

كان الأمير يتمتع بصحة جيدة في شبابه وشيخوخته على الرغم مما تحمله من نوائب الدهر ومصائب الزمن من جهاد وكفاح وأسر في سبيل الله والوطن، حيث تحمل ذلك بجلد وصبر ونفس قوية إلى أن أصيب في آخر أيامه " بورم في خصيته يمنعه من الإسراع في المشي إلى جانب إصابته بمرض الكلى والمثانة، ومع ذلك لم " يظهر ضجرا ولا تأوها قط ولا ترك الصلاة في وقت من الأوقات"[١٧٣] وفي الساعة السابعة من ليلة يوم السبت ١٩ رجب ١٣٠٠ هـ/ ٢٤ مايو ١٨٨٣ م " لبى نداء ربه بنفس راضية مرضية وذلك في قصره في قرية دمر بضاحية دمشق عن عمر يناهز ٧٦ حولا، واهتزت دمشق وما جاورها لهذا المصاب الجلل، وسرعان ما ذاع الخبر في جميع الأنحاء فعم الحزن والأسى كل من يعرف عبدالقادر.